356

HARLEQUIN

روايات أحلام

التائه

آن ميثر

www.elromancia.com

مـــرمـــوريـــة

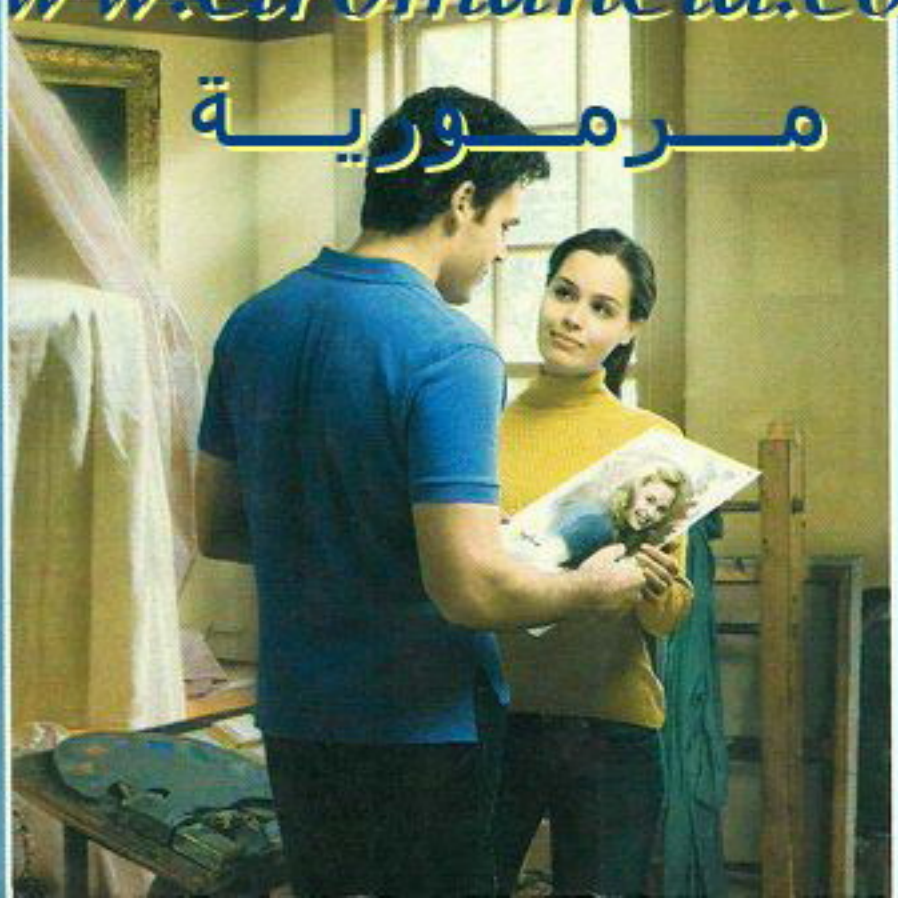

التائه

بدا أن وظيفة "تس دانييل" الجديدة في إيطاليا قد بدأت بداية سيئة عندما اتهمها الكونت "ريف دي كاستيلي" بأنها مسؤولة عن اختفاء ابنه المراهق . لكن المقصودة فعليا بالتهمة هذه هي شقيقة تس الصغرى التي اختفت هي أيضا، إنه وضع محرج حقا . ولم يكن ينقصه سوى تلك المشاعر المشحونة الغريبة التي كانت تنتاب تس وريف . مشاعر لم يكن الاثنان يريدانها ولكنها كانت تفرض نفسها عليهما بعنف . هي تريده ... وهو يريدها . ولكنه يبعدها عن طريقه خوفا من عاطفة يخشى أن تكون مدمرة ... فكيف يستطيع أن يحب فتاة لا يكفي أنها تصغره بعشر سنوات . ولكن لا يمكن السيطرة عليها أيضا !

لبنان،	2500ل.ل	البحرين،	1دينار
سوريا،	75ل.س.	السعودية،	10ريال
الأردن،	1.5دينار	مصر،	8جنيه
الكويت،	750فلس	المغرب،	15درهم
الإمارات،	10دراهم	تونس،	2دينار
قطر،	10ريال	عمان،	1ريال

ISBN 9953-15-269-1

روايات أحلام

تصدر عن شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م
المدير المسؤول: آمال سابا الهاشم

حقوق النشر والطباعة والتوزيع باللغة العربية
محفوظة لشركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
بترخيص خطي من Harlequin Enterprises II B.V

كل الحقوق محفوظة، بما فيها نسخ الكتاب بكامله أو جزء منه بأي شكل من الأشكال
تم نشر هذه الطبعة بالاتفاق مع شركة Harlequin Enterprises II B.V.

كل العلامات التجارية استعملت
بترخيص من شركة Harlequin Enterprises II B.V.

كل شخصيات هذه الرواية وهمية. أي شبه بين هذه الشخصيات وأشخاص
حقيقيين أحياء كانوا أم أمواتاً هو محض صدفة

العنوان الأصلي لهذه الرواية باللغة الإنكليزية:
In The italian's Bed
First published in Great Britain 2004
Harlequin Mills & Boon Limited
© *Anne Mather 2004*
Translation © Dar El-Farasha - 2005
ISBN 9953 - 15 - 269 - 1

شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م. طريق المطار - ستر زعرور -
ص.ب: 8254/ 11 هاتف/ فاكس: 450950-1-961- بيروت - لبنان
Email: info@darelfarasha.com - http:www.darelfarasha.com

آن ميـثر

بدأت آن ميثر بالكتابة منذ طفولتها وتطوّرت أعمالها تدريجياً من روايات المراهقين الغرامية العاصفة إلى روايات الحب المتّزنة التي تهوى مطالعتها. وهي متزوّجة وأمّ لولدين، يعيشون معاً في شمال إنكلترا. تستمتع آن ميثر إلى جانب الكتابة بهوايات عديدة، منها المطالعة وقيادة السيّارات والسفر إلى أماكن مختلفةً حيث تعثر على أفكار لروايات جديدة. تعتبر آن ميثر نفسها محظوظة جداً بممارسة عملٍ لا تستمتّع به فقط، بل يدرُّ عليها المال كذلك.

www.roman-romancia.com

١ - البديلة

كان الرجل يقف أمام معرض ماديسي حين مرّت تس بالسيارة. ألقت عليه نظرة خاطفة وهي تحاول التركيز على السير، فرأته ينظر إليها فيما هي تتجه إلى موقف السيارات الذي يقع خلف المحلات والمقاهي المواجهة لمنتزه بورتو سان ميشيل.

تساءلت تس إن كانت تبالغ حين تصوّرت أنها رأت نظرة عدائية جليّة في عينيه.

نبذت هذه الفكرة من رأسها على الفور لأنها مجرّد تخيلات، فهو لا ينتظرها كما أنها لم تتأخر بعد.

حسناً، لقد تأخرت بضع دقائق فقط لكنها لا تظن أن آشلي أكثر دقة منها في المواعيد. لم تجد الكثير من السيارات في الموقف في تلك الساعة من الصباح. وقد اكتشفت تس أن المحال الإيطالية نادرة ما تفتح قبل العاشرة صباحاً. وجيرانها أو بالأحرى جيران آشلي، بالكاد يلتزمون بدوام محدد لفتح محالهم وإقفالها، لكنهم مستعدون دائماً لتقديم المساعدة وهي ممتنة لهم على النصائح التي أسدوها لها في الأيام الثلاثة الماضية منذ أن حلّت مكان آشلي في العمل.

تمنت وهي تدخل من الباب الخلفي للمعرض أن تكون مخطئة بشأن ذلك الرجل. أسرعت عبر الممر الذي يؤدي إلى صالة العرض وأطفأت جهاز الإنذار. لعله صديق لآشلي وهو لا يعلم بغيابها، وألقت نظرة سريعة على النافذة فرأت ظله على الستائر.

من الواضح أنها ستضطر إلى مواجهته. قررت تس أن تنتظر بضع دقائق،

فاتجهت من جديد نحو الممر ودخلت مكتباً صغيراً إلى اليمين، حيث تحتفظ آشلي بالملفات وتستريح في بعض الأحيان.

نظرت تس إلى إبريق القهوة بشوق وتمنت لو تملك الوقت لملئه، لكن ربّ عمل آشلي لن يكون مسروراً إذا ما أدى تأخرها عن العمل إلى خسارة أحد الزبائن. وبعد أن تفقدت مظهرها في مرآة صغيرة إلى جانب الباب، توجهت لتفتح باب المعرض. كان الباب مصنوعاً من زجاج وحديد متشابك على عكس النوافذ الزجاجية، وفتحت تس الستائر بحذر قبل أن تمسك بمقبض الباب ممّا أعطاها بعض الوقت لتعاين الزائر.

بدا أكثر طولاً من معظم الأيطاليين، وملامحه داكنة ملفتة للنظر. لاحظت أنه ليس وسيماً، لكنها تشك في أن ترى أي امرأة نقصاً فيه، فملامحه جذابة بشكل خطير، ما أرسل رجفة في عمودها الفقري.

نعم... فكّرت تس، إنه من النوع الذي يجذب آشلي، وقدّرت أن تكون زيارته المعرض ذات طابع شخصي. حين فتحت الباب قطّب حاجبيه بسخرية وهو يراقبها.

تصرّفه هذا جعلها تودّ إقفال الباب مجدداً لتريه مدى ثقتها بنفسها، لكن، وبدلاً من ذلك أجبرت نفسها على رسم ابتسامة صغيرة على وجهها، وهي تقول بلغة إيطالية رقيقة: «صباح الخير، بماذا أخدمك؟».

التوى فم الرجل وكأنها أخطأت القول، ولم يجبها فوراً بل جال بنظره في المعرض وكأنه يتفقد محتوياته.

تساءلت تس إن كانت مخطئة بشأن علاقته بآشلي، إذا ما كان يتوقع منها فعلاً أن ترافقه في جولة في المعرض.

كانت واثقة من أنه ليس سائحاً. أتراه جامع لوحات إذن؟ لكن الوقت لا يزال مبكراً جداً كما أن اللوحات المعروضة لا تغري هواة جمع اللوحات.

أدركت أنها مخطئة تماماً. فبالرغم من اهتمامه الظاهر إلاّ أن الخطوط التي بدت على وجهه الأرستقراطي دلّت على احتقاره لتلك اللوحات.. وربما لها.

وخطر لتس أنّ هذا الرجل لا يقبل الرفض بسهولة، ثم تساءلت من أين أتتها هذه الفكرة. إن كانت آشلي متورطة معه، فهي لا تحسدها أبداً.

تردّدت قليلاً، إذ لم تكن واثقة مما إذا كان عليها أن تتركه وشأنه أم تسأله مجدداً إن كان باستطاعتها مساعدته.

تأملت بذلته الداكنة اللون التي يساوي ثمنها راتب سنة كاملة وتمنت لو لم تكن ترتدي التنورة القطنية التي تصل إلى الكاحل وتنتعل ذلك الحذاء الرياضي. أما قميصها فكان بسيطاً من دون أكمام ما جعلها تشعر بأنها عرضة لنظراته المتقدة بشكل قوي. لو كانت آشلي مكانها لانتعلت حذاء بكعبين عاليين مع ثوب مناسب.

استدار الرجل يواجهها، فبذلت مجهوداً كبيراً واستجمعت قوة إرادتها لمنع نفسها من التراجع إلى الوراء.

رأت في عينيه الذهبيتين شيئاً من الشك وهو يراقبها بنظراته العميقة بلا مبالاةٍ متعمدة.

لاحظت أنه أصغر سناً مما خيّل إليها في البدء، وأحسّت قوة الجاذبية البدائية التي يملكها كما تركتها غطرسته الفطرية ضعيفة.

قال بنعومة وبلكنة خفيفة: «آنسة دانييل؟ إنه.. كيف أقولها؟.. يسرّني أن ألتقي بك».

توقف قليلاً وقد بدت نظراته الآن أكثر ازدراءً ثم تابع: «لا بدّ أن أقول إنك مختلفة عمّا توقعتك. ولكن ستخبريني أين يمكنني أن أجد ابني..».

هل هذا تهديد؟

تراجعت تس إلى الوراء بسبب نبرة صوته، لكنها أدركت في الوقت نفسه أنه مخطىء. لا بد أنه يريد التحدث إلى آشلي وليس إليها، لكن ما الذي تعرفه آشلي عن ابنه؟ فهي في إنكلترا تهتم بوالدتها. شرعت تقول: «أخشى أنك مخطىء،

سنيور».

أجابها بقسوة: «لا، آنسة دانييل، أنتِ هي المخطئة، أعرف أنك على علم بمكان ماركو، فقد رآكما التحري الخاص وأنتما تصعدان الطائرة معاً».

رفرفت بأهدابها وردّت: «لا، أنت مخطىء..».

فقال بنفاد صبر: «لماذا؟ لأنك هنا؟ لقد اشتريت بطاقتين إلى ميلانو، لكن لا بد أنكما بدّلتما الطائرة في جينوفا، إذ لم تكونا أنت وماركو على متنها، حين حطّت في مالبينا. لذلك لم يعد أمامي خيار إلاّ المجيء إلى هنا. اشكري الله أنني وجدتك».

- لكنني لست...

علمت تس أنها تبدو مجنونة حين قالت: «أعني... أنا لست الآنسة دانييل.. حسناً أنا فعلاً الآنسة دانييل».

ليتها تتمكّن من أن تصيغ كلماتها بشكل صحيح! وتابعت: «لكنني لست آشلي دانييل بل أختها».

عكست عيناه عدم تصديقه وسأل: «هل هذه أفضل كذبة تمكّنت من اختراعها؟»

ازداد سخط تس وقالت: إنها الحقيقة. أدعى تس بل تيريسا في الواقع، لكن لا أحد يدعوني بهذا الاسم».

التفت إليها بعينيه المفترستين رافضاً تصديق ادعاءاتها، فقالت تدافع عن نفسها بعفوية: «إنها الحقيقة».

ثم تابعت وكأن الإلهام نزل عليها: «يمكنني إثبات كلامي، فلدي جواز سفر، هل يكفي ذلك؟»

ضاقت عينا الرجل وقال: «دعيني أراه».

اتسعت عينا تس لطلبه ولكن قوة غريبة دفعتها للإسراع إلى المكتب لتحضره. كان جواز سفرها في جيب حقيبتها فأخذته وهي تشعر بالانتصار.

لكن حين استدارت لتعود إلى صالة العرض، وجدت أن الرجل يقف وراءها. وبحركة فيها الكثير من التحدي وضعت جواز السفر في يده.

وقف أمامها بشكل سدّ طريق الخروج ما ولّد لديها شعوراً بالذعر. ما الذي تعرفه عن هذا الرجل؟ تعلم فقط أنه يعرف أختها أو بالأحرى يعرف شيئاً عن أختها وما يعرفه سيء جداً.

وفيما راح الرجل يقلب صفحات جواز سفرها، قالت: «اسمع. أنا لا أعرف من تكون وماذا تريد، لكنني لا أعتقد أنك تملك الحق في أن تأتي إلى هنا وتتهمني أو بالأحرى تتهم آشلي بـ...»

رمى جواز السفر على الطاولة وقال بازدراء: «باختطاف ابني؟»

انتفض قلب تس حين سمعت اتهامه السخيف وأضاف فيما كان يقلب صفحات جواز السفر: «انتبهي آنسة دانييل، كونك لست أختك لا يغيّر شيئاً، فماركو لا يزال مفقوداً.. وقد رحل مع أختك. لذلك لا بد أنك تملكين فكرة عن الموضوع».

بالكاد وجدت تس ما تقول: «لا.. أعني.. أعلم أين هي آشلي. إنها في منزل والدتها في إنكلترا، فوالدتها مريضة، وآشلي تهتم بها».

لم تتغيّر تعابير وجهه وقال: «ولهذا حللت مكانها؟»

- نعم، أنا معلمة مدرسة وكنت في إجازة، لذلك تمكّنت من الحلول مكانها.

- أنتِ تكذبين آنسة دانييل، لما لم تهتمي أنت بوالدتك؟ لقد قرأت للتو في جواز سفرك أنك تقطنين في إنكلترا. لذا، أخبريني لما لا تهتمين أنت بها بدلاً من أختك؟

علّقت تس بحدة: «إنها ليست أمي، لقد تزوج والدي مجدداً بعد وفاة أمي».

ثم أخذت نفساً عميقاً وتابعت: «أظنني أجبت عن سؤالك. أنا آسفة لاختفاء ابنك لكن لا علاقة لنا بالأمر».

www.elromancia.com

لم يقتنع بشرحها لكنه تراجع نحو الممر ليفسح لها المجال وقال: «أنت مخطئة».

هربت تس إلى صالة العرض الأكثر أماناً فتبعها وهو يقول بإصرار: «مهما قلتِ آنسة دانييل، فأنا لا أصدق أن أختك تعتني بوالدتها المريضة. هي وماركو لا يزالان في إيطاليا، فهو لم يأخذ جواز سفره معه».

وضعت يديها المتوترتين على صدرها فشعرت بدقات قلبها تضرب بقوة بين ضلوعها وذكّرته بتوتر: «قلت.. إنها اختطفته! إنه اتهام سخيف.. وإن كانت آشلي مع ابنك فعلاً، فهذا بالتأكيد شأنهما وليس شأنك».

قال بازدراء: «لا أظن ذلك، فابني في السادسة عشرة من عمره آنسة دانييل، ومكانه في المدينة مع أترابه وليس مع أختك متجولاً في أرجاء البلاد».

ابتلعت ريقها بصعوبة: في السادسة عشرة من عمره!

لم تستطع تصديق ذلك. المسألة كلها مضحكة. قد تكون آشلي متورطة مع هذا الرجل ولكن مع ابنه المراهق! هذا ما لا يمكن تصديقه.

وذكرت تس نفسها بضرورة التمسك بما قالته وليس بما يشك به هو. آشلي في إنكلترا.

تباً، لقد تحدّثت إليها منذ يومين. لهذا السبب كانت تمضي تس جزء من عطلة الفصح بالعمل بدلاً من أختها. لا يمكن لآشلي أن تقفل المعرض، وقد وعدتها بالعودة بعد بضعة أيام.

وأدركت أنها لا تستطيع تجاهل ادعاءاته فسألته رغماً عنها:

- إذا لم تلتقِ بأختي من قبل فكيف يمكنك أن تكون واثقاً من تورطها مع ابنك؟

ربما لم تكن آشلي في انكلترا حين اتصلت بها، ولعلها استخدمت هاتفها الخلوي.

كيف يمكنها أن تكون واثقة؟

ألقى الرجل عليها نظرة تدل على نفاد صبره: «لقد التقيتها منذ عدّة شهور.

في مطلق الأحوال فإن الشخص الذي كان يراقبها لا يمكنه أن يخطىء. للأسف، كنت مسافراً لكن مساعدتي الشخصية اتصلت بأختك منذ أسبوع فقط، وأقسمت لها حينها أنها ستتحدث إلى ماركو وستخبره أن لا مستقبل لـ... علاقتهما. كم يبلغ عمرها؟ أربعة وعشرون عاماً؟ خمسة وعشرون عاماً؟ إنها كبيرة جداً بالنسبة لصبي في السادسة عشرة من عمره..».

زمّت تس شفتيها وقالت: «إنها في الثامنة والعشرين من عمرها».

رأت تس أنّ عبوسه ازداد حين سمع كلماتها. لم تعلم ما عليها أن تقول وبالكاد عرفت كيف تفكّر.

لكن إن كان الأمر صحيحاً فهي تتفهّمه. هل كذبت عليها آشلي؟.. هذا ممكن. كان عليها أن تدرك ذلك حين طلبت منها آشلي الحلول مكانها لتعتني بوالدتها، فقد استغربت تس ذلك بعض الشيء. لطالما كانت صحة والدة آشلي ضعيفة، ومنذ وفاة والدها قبل سنة تقريباً وهي تعاني من أمراض الشيخوخة. لقد شكت تس في أن يكون هو السبب الذي جعل آشلي تقبل بهذه الوظيفة في إيطاليا. فهي ليست من النوع الذي يحتمل الاهتمام بوالدة مضطربة مصابة بوسواس المرض. لكن هذه المسألة لا يمكن تصديقها أيضاً، فمن المؤكد أن آشلي لن تقدم على التورط مع صبي في السادسة عشرة من عمره.

إن الطريقة الوحيدة لاكتشاف الحقيقة هي الاتصال بوالدة آشلي. لكن إن أجرت تس الاتصال بنفسها وكانت آشلي موجودة هناك فستبدو وكأنها لا تثق بها.

تمتمت وهي تمرر أصابعها بتوتر في خصلات شعرها الأشقر: «لا أعلم ما أقول».

لقد قصّت شعرها قبل أن تأتي إلى هنا ولم تكن مقتنعة بأن هذه التسريحة تليق بها، لكنها أملت أن تعطيها مظهراً أكثر نضوجاً إلاّ أنها شعرت بأنها لم تنجح في ذلك.

نظر الرجل إليها نظرة استعلاء. ما الذي ستفعله الآن؟

قال لها بتهذيب: «يجب أن تقولي لي أين هما. أدرك أنك تريدين البقاء وفية لأختك لكن عليك أيضاً أن تدركي أن هذه المسألة يجب ألاّ تستمر».

أصرّت تس: «صدّقني أنا لا أعلم أين هما».

عندما انتبهت لما قالته أضافت بسرعة: «كل ما أعرفه هو أن آشلي في انكلترا مع والدتها كما قلت لك».

ردّد الرجل الفكرة التي خطرت في بال تس منذ لحظات: «جيّد، اتصلي بها إن كانت مع والدتها وسأقدم لك اعتذاري لتسببي بإزعاجك».

- وإن لم تكن هناك؟

نظرت تس إليه وهي غير قادرة على إخفاء خوفها. وظنت للحظة أنه سيلين، لكن ما إن رأت شفتيه المشدودتين حتى أدركت العكس. قال لها: «لكنك واثقة من وجودها هناك».

وراودتها فكرة غريبة، هذا الرجل لن يأخذها رهينة ليضغط على أختها. أملت أن تكون آشلي قد أخذت هذا بعين الاعتبار قبل أن تهرب مع ابنه. هذا إن كانت قد هربت معه فعلاً كما صححت لنفسها بحدّة.

ليس لديها سوى كلمته وكلمة تحريه الخاص كإثبات على ذلك، لكنها تميل إلى تصديق كلام هذا الرجل. أدركت أنها حدّقت إلى وجهه وقتاً طويلاً فسألته فجأة:

- إن... إن كانت هناك، عليّ أن أقول لها من يسأل عنها، فماذا أقول؟

فكّرت بجفاء بأنه يراها نحيلة بهذه التنورة الطويلة وهذا الحذاء الرياضي، إنما من الأفضل ألا يعتقد أن أخت آشلي مهتمة به.

تردّد للحظات ليفكر بسؤالها ثم قال باختصار: «قولي لها فقط إنّ كاستيللي يسأل عنها. أنا متأكد من أن الاسم سيعني لها شيئاً».

ورغم أنها لم تتجرأ على تخيّل الأمر إلا أن تس اعتقدت أن الاسم سيعني شيئاً

لأختها. أرجوك يا إلهي، فلتكن مع والدتها!

وتمتم كاستيللي بسخرية: «إن قالت شيئاً».

ثم قطّب وتابع: «ألا يمكنك أن تتصلي بها الآن يا آنسة دانييل؟ سأنتظر بينما تجرين الاتصال».

حبست تس أنفاسها.. إنه معتاد بالتأكيد على تسيير الأمور بحسب إرادته لكنها تحملت إزعاجه بما يكفي، فقالت من دون أن تسمح له أن يرهبها: «لا أستطيع الآن. سأتصل لاحقاً.. والآن أعذرني فلدي أعمال أقوم بها».

بدت شكوكه واضحة إذ تأمل أنحاء المعرض وقال: «حقاً؟ لا يبدو المعرض مزدحماً بالزبائن آنسة دانييل».

سرت الرعشة على طول عمودها الفقري: «اسمع، لقد قلت لك إنني سأتصل بها وسأفعل ذلك بالتأكيد، أليس ذلك كافياً؟».

وبدا واضحاً أنها تعني: سأتصل بعد رحيلك من هنا.

قال بنفاد صبر: «أنت تخشين إجراء ذلك الاتصال. احترسي وإلا سأظن أنك كنت تكذبين عليّ منذ البداية».

ازداد غضب تس بشكل غير متوقع وقالت بشراسة: «أرجوك، ليس عليّ الاستماع إلى هذا. لست المذنبة إن كان ابنك طائشاً. أنت والده ألا تتحمل المسؤولية هنا؟»

أرعبها سكوته للحظة، وفكّرت في أنه يبدو متوحشاً وانتظرت بذعر أن ينفجر غضباً. لكن شفّتيه انفرجتا فجأة عن ابتسامة رقيقة جداً، وظهرت على وجهه الداكن نظرة تقدير ثم التفت بجفاء إلى أصابعها المتشنجة وقال: «يا إلهي.. للقطة الصغيرة مخالب».

هذا القول جعل دقات قلبها تتسارع بشكل غير إرادي. أجفلها التشابه الذي وجدته بينه وبين الصورة التي فكّرت فيها حالما رأته، لكنها اعترفت بسرعة أنه ليس ماكراً.

وجدت نفسها تعتذر:

- أنا آسفة، لم يكن يجدر بي التكلم بهذه الطريقة، فأنا.. لا علاقة لي بالموضوع.

- لا بل أنا الآسف سنيوريتا، فأنت محقة. هذه ليست مشكلتك. للأسف إن ابني.. كيف أقولها... عنيد جداً. ولم يكن عليّ أن أصب غضبي عليك أنت.

ارتجف جسد تس.. أصبحت عيناه الآن ألطف، وأكثر سحراً مما جعل لونهما الأسود أكثر عمقاً. كانت عيناه مسمرتين على عينيها فشعرت وكأن أنفاسها انقطعت.

يا إلهي، إنها ترتجف مجدداً.. تأثيره على حواسها مخيف. ما خطبها الآن؟ إنها تتصرف وكأن رجلاً لم ينظر إليها من قبل. وأخيراً تمكنت أن تقول: «لا بأس.. لا أهمية للأمر».

أجابها قائلاً: «بل إنه في غاية الأهمية. لقد تصرفت كمغفل عديم الإحساس ولم يكن يجدر بي أن أشكك بصدقك، إن أعطيتني رقم هاتف أختك سأتصل بها بنفسي».

كبتت تس آهة في داخلها.. يا الله.. ما إن بدأت تظن أن الأسوأ مرّ حتى تفوه بهذا الكلام. بعد أن جعلها تضعف أمامه ها هو يصوّب عليها سلاحه من جديد. لم يستسلم بعد.. بل غيّر استراتيجيته فقط.

لم تستطع تس الجزم بأن هذه ليست خطته منذ البداية. حرّكت رأسها بإيماءة يائسة، وكيف يمكنها أن تعطيه رقم الهاتف؟ كيف ستسمح له بالتكلّم إلى والدة آشلي إن لم تكن آشلي موجودة؟ ستصاب أندريا بنوبة قلبية إن أخبرها أن ابنتها مفقودة وأنها برفقة ابنه الذي بلغ السادسة عشرة من عمره. الله وحده يعلم ما ستكون عليه ردّة فعلها.. ركّزت تس نظراتها على ربطة عنقه الحريرية وهي تفكر جاهدة بعذرٍ مقنع لئلا تعطيه رقم الهاتف.

بدا صعباً عليها أن تجد مبرراً لردات فعلها تجاهه من دون أن تشعر بالذنب وقالت:

- لا أظن أن هذه فكرة جيدة.

تمنت بيأس أن يدخل أحدهم المعرض.. لكن أحداً لم يفعل فتابعت تقول من دون اتّزان:

- صحة والدة آشلي ليست جيدة، وأنا لا أريد أن أزعجها.

تنهّد كاستيللي وقال: «سنيوريتا..»

- أرجوك نادني تس.

أخذ نفساً عميقاً وقال: «تس».

لكنها بالكاد تمكنت من فهم اسمها حين قاله، فلهجته أضفت عليه لحناً جميلاً.

وتابع قائلاً: «لمَ يزعجها اتصالي؟ فلا نية لدي لإخافة أحد».

فكرت تس في أنه يخيف الجميع من دون أن يدرك، وتساءلت من تراه يكون هذا الرجل؟ وما رأي زوجته بهذه المسألة؟ هل تعارض هي أيضاً هذه العلاقة إلى هذا الحد؟

ثم حدّثت نفسها قائلة: بالطبع عليها أن تعارضها. إن كان ماركو يشبه والده فهي تتفهّم انجذاب آشلي إليه، ثم صحّحت لنفسها: هذا إن كانت فعلاً منجذبة إليه، إذ يجب ألاّ تسرع في الاستنتاج.

قالت بصراحة مجيبة عن سؤاله: «أنا... السيدة دانييل لا تعرفك.. إن لم تكن آشلي في المنزل وردّت هي على الهاتف فسأكون مضطرة للتدخل..»

مرّة أخرى اجتاحت نظراته عالمها مسببة لها الاضطراب.

- لماذا؟ هيا تس لما لا تكونين صادقة؟ أنت خائفة من ألاّ تكون أختك في منزل والدتها، أليس كذلك؟

فضحتها نظراتها الدفاعية فقالت: «حسناً، أعترف أن ثمة احتمال ولو

بسيط بألاّ تكون آشلي في إنكلترا، ولكن...».

ثم رفعت يدها حين أراد مقاطعتها وتابعت قائلة: «ولكن ذلك لا يعني أنها.. مع ماركو.. ابنك».

لقد أتى اسم ابنه بسهولة على لسانها ثم أردفت: «ربما وجدت أنها بحاجة إلى فترة استراحة وبما أنني في إجازة حللت مكانها في العمل».

سألها بنعومة: «أنت لا تصدقين ما تقولين، أليس كذلك؟».

ومرّر يداً متسائلة فوق ربطة عنقه الحريرية. بدت حركته حساسة بشكلٍ غير إرادي وشكّت في أنه يدرك ذلك.

وتابع كاستيللي يقول: «أعتقد أيضاً أنك متفهمة جداً. أتمنى أن تدرك أختك كم أنت صديقة صغيرة مخلصة لها».

تركت كلمة صغيرة أثراً في نفس تس، فقد أمضت حياتها وهي تسعى لئلا يحكم عليها الناس بحسب حجمها، وقالت مجدداً وقد أعطاها الغضب ثقة لم تتمكن من استجماعها من قبل:

- حسناً.. ربما سأتصل بها الآن لكن إن كانت هناك...

قال بلطف: «سأجد طريقة لأعوّض عليك، وإن كانت أختك مثلك فسأتفهم لما أعجب بها ماركو».

أثار لطفه سخط تس فقالت: «لا تجاملني. في الواقع آشلي لا تشبهني، إنها طويلة وأكثر.. أكثر..»

كيف تقول هذا؟.. تابعت: «حسناً.. إنها سمراء وأنا شقراء».

بدا في نبرة صوته بعض التسامح وهو يقول: «سامحيني.. لقد أغضبتك من جديد عزيزتي.. أتصوّر.. بما أنك الأخت الأصغر..»

تساءلت تس لما ظنت أن تسريحة شعرها الجديدة ستبرز عمرها الحقيقي، وقاطعته بحدة قائلة: «لست أختها الصغرى، لقد أخبرتك بأن والدي تزوج ثانية بعد وفاة أمي».

هزّ رأسه وقال: «مستحيل. لا أصدق ذلك. لكنك أخبرتني أن أختك في الثامنة والعشرين من عمرها، صحيح؟»

أجابت تس باختصار وهي تكافح للمحافظة على هدوئها: «وأنا في الثانية والثلاثين».

توقفت عن الكلام لبرهة ثم تابعت تقول بنبرة أكثر تحضّراً: «لا تتعب نفسك بالقول إنني لا أبدو في الثانية والثلاثين، فقد أمضيت السنوات العشر الماضية وأنا أحاول إقناع الناس بأنني أكبر سناً من التلاميذ الذين أعلّمهم».

زمّ كاستيللي شفتيه ثم قال لها:

- تعلمين أنّ معظم النساء يعارضنك تس، فأمي أنفقت ثروة لتحافظ على شبابها.

أجابته تس: «لكنني لست كمعظم النساء».

وأدركت أن إجابتها جاءت فقط للتملص من هذا الموقف، وتابعت تقول:

- والآن، أتصور أنه من الأفضل أن أتصل بآشلي.

www.elromancia.com

٢ - الهاربان

أخذ رايف كاستيللي يتمشى في المعرض بتوتر. كانت غرائزه كلها تدفعه للانضمام إلى تس في ذلك المكتب الصغير حيث تجري الاتصال، ليتأكد من أنها اتصلت بأختها فعلاً.

لكن لطفه وثقته الداخلية بأنها لن تكذب عليه جعلاه يبقى بعيداً عن المكتب.. لم يشأ أن يعرف كيف ستصيغ سؤالها كما لم يشأ أن يرى حزنها إن وجدت أنه محق، وهو متأكد من أنه على حق. لقد أكّد له ڤيرديسي الأمر. شخصان ركبا الطائرة المتوجهة إلى ميلانو وأحدهما إبنه.

بدا الوقت طويلاً جداً ووجد أنه كان من الأسهل لو أجرى هو الاتصال، لكن أي اقتراح للتدخل من قبله سيبدو حشرية واضحة.

خرجت تس بعد لحظات من المكتب فلاحظ كاستيللي التجهم على وجهها. بدا شعرها مشعثاً وكأنها كانت تمرر أصابعها المرتجفة بين خصلاته فيما هي تتكلم على الهاتف. أما وجنتاها الشاحبتان فقد علاهما الاحمرار.

فكّر بجفاء في أنها تبدو ملفتة ثم سخر من نفسه إذ كيف خطرت له هذه الفكرة في هذا الوقت بالتحديد. وتساءل.. أتراها تبدو هكذا حين تنهض من السرير في الصباح؟ هل يبدو شعرها متشابكاً ووجهها متورّداً؟ يا لها من صورة مزعجة! واختار أن يتجاهل أفكاره، فمهما بدت جذابة هي لا تعني له شيئاً. لقد سلّته بسذاجتها ليس إلاّ.

قالت بشكل مفاجىء بينما جمد هو في مكانه متوقعاً إجابتها: «ليست هناك.. أندريا... والدة آشلي لم ترها».

شعر رايف بالانتصار لأن معلوماته صحيحة، وبالراحة لأنه تأكد من أن ابنه ليس متورطاً مع امرأة أخرى.

تابعت وهي تنظر إليه بامتعاض: «كنت تعلم ذلك بالطبع».

راقبته بعينيها الخضراوين وأهدابها الداكنة وأكملت تقول: «إذاً.. أنت محق وأنا مخطئة، ماذا سنفعل الآن؟».

نفعل؟ استخدامها لهذه الصيغة جعله يحني رأسه تلقائياً شاعراً بالإحراج والخجل لجرأتها.

حاولت تصحيح كلامها: «أقصد.. أنا.. ماذا سأفعل الآن؟ لن أتمكن من البقاء هنا، إذ يجب أن أعود إلى المدرسة خلال عشرة أيام».

قال بجفاء وهو يشعر بالخيبة مثلها: «وكذلك ماركو، هل بإمكاني أن أسألك عما قالته لك أختك حين أعطتك مفاتيح المعرض؟ هل أعطتك أي فكرة عن موعد عودتها؟».

تنهّدت تس وردّت: «في الواقع أنا لم أرَ آشلي».

ورفعت يديها لتطوّق رقبتها، فبدت بشرتها ناعمة وقشدية اللون. حاول إبعاد هذه الأفكار ليستوعب ما قالته وردّد قائلاً:

- لم تريها؟ لم أفهم.

شرحت له: «لقد اتصلت بي آشلي وقالت إن والدتها مريضة وسألتني إن كنت لا أمانع في المجيء إلى إيطاليا للاهتمام بالمعرض بينما تذهب هي إلى انكلترا. فطلبت منها أن تغادر في الحال لشدة قلقها على والدتها وأن تترك المفاتيح لدى المسؤول عن شقتها».

- وهكذا أتيت مباشرة إلى هنا من دون المرور بوالدتها للاطمئنان عليها؟

- في الواقع، أنا ووالدة آشلي نعيش في مقاطعتين مختلفتين من البلاد.

هزّ رأسه وقال: «آه.. إذاً اعتقدت أختك أن من المستحيل اكتشاف خدعتها».

www.elromancia.com

- أعتقد ذلك.

بدا من الواضح أنها لا تريد الاعتراف بالأمر لكن رايف تمكّن من قراءة ذلك على وجهها.

هزّت رأسها وتابعت: «لا أصدق أنها اعتقدت أنها ستنجح في إخفاء هذا الموضوع. كان بإمكاني الاتصال بأندريا فأكتشف أنها ليست مريضة وأكتشف خدعتها».

- لكنك لم تفعلي؟

هزّت كتفيها وأرخت يديها إلى جانبيها وقالت: «لا وآشلي تعلم أنني لا أحبّذ القيام بذلك. فأندريا وأنا لم نكن يوماً «مقرّبتين».

قال من دون انتباه: «لا بد أن والدتك توفيت وأنت صغيرة جداً».

أراد ضرب نفسه لبلادة إحساسه، لكن الأوان فات فاضطر إلى شرح ما قصد وتابع: «أتصور أن زوجة والدك الثانية اهتمت بك بدلاً من والدتك».

هزّت تس رأسها وقالت: «طالما كانت صحة أندريا عليلة. لذا كان من الصعب عليها الاعتناء بطفلتين صغيرتين، فذهبت للعيش مع شقيقة والدتي وهي معلمة لم تتزوج أبداً».

مسكينة تس... لم يعلق رايف على الموضوع ولكن بدا له أن أندريا دانييل امرأة غير حساسة وأنانية تماماً مثل ابنتها.. ثم حاول أن يتكلم بنبرة ناعمة:

- يبدو أننا خُدعنا، من المؤسف أن أختك لا تحمل هاتفاً خلوياً، فهاتف ماركو مقفل.

- بل إنها تحمل واحداً.

قالت تس ذلك بحماسة جعلت ملامح وجهها الشاحب تبدو فاتنة. كما بدت ابتسامتها رائعة.

وتابعت تقول: «لم أفكّر في الأمر من قبل. لقد أعطتني رقم هاتفها حين انتقلت للعيش في سان ميشيل».

زفر أنفاسه بقوة: «هل لديك الرقم؟».

- بالطبع.

استدارت وتوجّهت إلى المكتب حيث تركت حقيبتها وعادت بعد لحظات وهي تحمل قصاصة ورق صغيرة: «ها هو الرقم، هل تريد أن تتصل بها بنفسك أم أقوم أنا بذلك؟».

أدرك رايف فجأة أنهما أصبحا شريكين بشكل عفوي. فقد أضحت هي أيضاً قلقة مثله تريد أن تعرف أين اختفت أختها لكنه ذكّر نفسه مجدداً بأنه يجب ألاّ يتورط معها مهما بدت بريئة، فهي أخت عدوّته وإذا خيّرت بين الاثنين فستختار أختها بالتأكيد.

قال لها بلهجة رسمية قاسية: «إذا أردت أن أكلّمها أنا فسأفعل. لكن ربما من الأفضل أن تتصلي أنت فإن سمعت صوتي قد...».

- آه.. آه نعم.

لم يكمل كلامه ولكن تس فهمت ما أراد قوله. وحوّلت بصرها عنه، وكأنها أدركت فجأة أنها لا تدين له بأي خدمة. ومهما كان مقنعاً فهي لا تملك سوى كلمته لتعتبر آشلي ملامة على اختفاء ابنه.

أومأت بفظاظة وتوجّهت إلى المكتب لتعود بعد دقائق. أظهرت تعابير وجهها أن الحظ لم يحالفها، وقالت له: «هاتف آشلي مقفل أيضاً».

رأي رايف أنها بدأت تفقد ثقتها بأختها. تنهدت تس وأكملت قائلة: «يبدو أنك محق، ماذا ستفعل الآن؟».

تمنّى رايف لو يملك جواباً عن سؤالها.. لكنه أجابها أخيراً مختاراً الجواب الأقل عدائية: «سأستمر في البحث، ثمة العديد من المتجعات في البلدة وفي جينوفا ومن المحتمل أن تكون أختك قد استأجرت سيارة حين وصلا إلى المطار.. البحث عنهما ليس مهمة سهلة».

مرّرت لسانها على شفتيها فأدرك رايف أنها لا تعرف كم تبدو هذه الحركة

مثيرة.

- هل ستعلمني إن وجدتهما؟ أقصد.. إن وجدت آشلي؟

واحمرت وجنتاها ثم تابعت تقول: «تعلم ماذا أعني».

أدرك رايف ما تعنيه لكنه لم يعرف في تلك اللحظة ما إن كان يود أن يلتقي بها مجدداً، فهي شابة جداً وحساسة.. ورغم أنها الأكبر سناً إلاّ أنه متأكد من أن آشلي أكثر خبرة منها بالحياة والناس.

أزعجه هذا الانطباع، بما يفكر بحق السماء؟ لم تطلب رؤيته مجدداً بل سألته أن يعلمها عندما يعرف شيئاً عن أختها.

قال بشكل مفاجيء: «حسناً».

واتجه نحو الباب، وحين وصل إليه التفت إليها ليودّعها ففوجيء بنظرة الخيبة في عينيها.. كانت تضع يديها على خصرها وقد بدت وحيدة وضائعة. فقال قبل أن يتمكن من منع نفسه: «ربما يمكنك أن أيضاً أن تبلغيني إن عرفت عنها شيئاً..».

اتسعت عيناها الخضراوان وقالت ما توقّعه تماماً: «لا أعلم كيف أتصل بك».

لا ينوي إعطاءها رقم هاتفه الخلوي.. لن يقع في الفخ بهذه السهولة.. مدّ يده إلى جيبه وقرّر أن يعطيها بطاقة العمل، فبهذه الطريقة سيردّ خوليو على اتصالها ولن يضطر للتورط معها.

مشى خطوات عدة إلى داخل المعرض مجدداً وأعطاها بطاقته. لامست أصابعها يده وهي تأخذ البطاقة. فلم يتمكّن من تجاهل الرغبة المفاجئة التي سرّت في دمه، وفكّر رايف في أنه يريدها. لقد انجذب إليها بحذائها الرياضي وكل ما فيها، أم تراه يشعر بفارق السن بينهما وإغراءه لها يعوض عما تفعله أختها بابنه.

حاول التخلص من هذه الأفكار بسرعة. من الواضح أنه يمرّ بأزمة منتصف

العمر لأن الفتيات اللواتي يماثلنها لم يعجبنه من قبل. إنه يحب الشابات اللواتي يرتدين الفساتين الأنيقة ويتنعلن أحذية ذات كعوب عالية، ولا يحلمن أبداً بالخروج من دون زينة على وجوههن.

قرأت تس على بطاقته: كروم دي كاستيللي.

راقب رايف تعابير وجهها وهي تقرأها.. تمتمت: «كروم عنب؟ هذا رائع! لم ألتقِ يوماً شخصاً يملك كروم عنب».

ولا أختك أيضاً، كما فكر رايف بجفاء. سيكون ساذجاً جداً لو صدّق أن لا علاقة لخلفية ماركو العائلية بمخططات آشلي. ومع أنه لا يزال يجهل غايتها بالضبط إلا أنّ مبلغاً من المال يشكّل بالتأكيد جزء من هدفها، فقد سبق أن مرّ بتجربة مماثلة مع ابنته.. لكن ماريا كانت آنذاك في الثامنة عشرة وليس في السادسة عشرة من العمر.

قال محاولاً التقليل من أهمية امتلاكه للكروم: «إنها معادلة بسيطة سنيورينا، الكثير من العائلات الإيطالية تهتم بزراعة العنب بسبب الطلب المتزايد على عصيره في السنوات الأخيرة».

لوت تس شفتيها بتسلية واضحة وقالت: «هل يمارس الجميع العمل نفسه؟».

فجأة شعر رايف بأن الأوان حان ليذهب، قبل أن يتصرف بسخافة ويدعوها إلى منزله. وتصوّر ذعر والدته إن عاد إلى المنزل برفقة فتاة مثل تس.

أجابها بتهذيب: «نعم، سينيورينا».

وبدأ يمشي بخطوات واسعة نحو الباب لكنها لن تسمح بأن تكون الكلمة الأخيرة له، فذكّرته وهي تلحق به: «اسمي تس».

بعدئذ، راقبته وهو يتوجه إلى سيارته. ورغم أنه لم يردّ عليها إلاّ أنه أدرك أنه سيفكّر فيها. وجد رايف أن اسمها يناسب شخصيتها بطريقة ما، فهو مليء بالأنوثة مثلها تماماً.

وكما توقع رايف، كانت والدته بانتظاره حين عاد إلى فيللا دي كاستيللي. إنها امرأة طويلة وأنيقة في منتصف الستينات، انتقلت للعيش معه منذ ست سنوات حين انفصل عن زوجته. توفي والد رايف منذ عشرين عاماً وقد منح الاعتناء بماريا وماركو المرأة العجوز دافعاً جديداً لتعيش حياتها بنشاط. وهي لن تسامحه بالتأكيد على انفصاله عن جينا، فالزواج في عائلة دي كاستيللي يدوم إلى الأبد..

برهنت والدته في مناسبات عدة أنها تتمتع بقوة رهيبة وهي لم تقرر الانتقال مجدداً إلى البيت الريفي الذي ورثته عن والد رافاييل إلا مؤخراً.

أدرك رايف أنّ تصرّفات ابنه هي التي دفعتها إلى اتخاذ قرارها. فرغم أن مايا مرّت هي أيضاً بفترة عصيان إلاّ أن السيطرة عليها كانت أسهل مقارنة بأخيها، فماركو معتدّ بنفسه.

- هل رأيتها؟

ذكّرته كلمات والدته بأن آشلي هي المسؤولة عن المعرض وليس تس، وأنّ السبب الرئيسي الذي جعله يزور المعرض هو سؤال آشلي إن كانت تعرف مكان ماركو. لكنه التقى أختها واكتشف أنه ليس ناضجاً بما يكفي لئلا يجعل من نفسه أضحوكة.

قال محاولاً إظهار قلّة اهتمامه: «ليست في المعرض».

ودخل إلى غرفة الجلوس حيث تنتظره والدته. كانت الغرفة دافئة جداً، فحل رايف ربطة عنقه وأبعدها قليلاً عن رقبته، ثم اقترب من الطاولة وأخذ قطعة من البسكويت المحلى بالعسل.

- يبدو أن ڤيرديسي محق، لقد هربا معاً.

التفت حين دخلت إحدى الخادمات لتسأل إن كان يريد شيئاً وأجابها بلطف: «فنجان قهوة، صوفيا».

ثم التفت نحو والدته مجدّداً وتابع يقول: «إن إختها تهتم بالمعرض في غيابها».

- أختها؟

بدت الشكوك على وجه والدته وعرف رايف أنها استنتجت ما فكّر فيه سابقاً.

جلس رايف على كرسي من الخيزران وحدّق إلى الحديقة ثم أكّدلها: «صدّقيني أنها لا تشبه أبداً المرأة التي تورط معها ماركو».

ضاقت عينا لوسيا وهي تسأله: «كيف علمت ذلك؟ ظننتك قلت إنك لن تعرف تلك المرأة إن رأيتها».

- أنا فعلاً لن أعرفها، ولكن تس معلّمة مدرسة وهي مخدوعة مثلنا تماماً، فقد اخترعت لها آشلي قصة أنّ عليها العودة إلى منزلها لتهتم بوالدتها المريضة.

قالت لوسيا بسخرية: «تس! أين نوع من الأسماء هذا؟».

فأجابها رايف: «إنه اختصار لتيريسا».

ثم شكر الخادمة التي أحضرت له القهوة واستدار مجدّداً نحو والدته قائلاً بغضب: «لن نصل إلى أي مكان إن بدأنا بإلقاء اللوم على الأشخاص القليلين الذين بإمكانهم مساعدتنا».

- كيف يمكن لهذه المرأة أن تساعدنا؟ لقد قلت بنفسك إنها لا تعرف مكان أختها.

- قد تتصل بها آشلي. إن أرادت أن تستمر تيريسا بتصديق قصّتها فستشعر بحاجة إلى دعمها.

زمت لوسيا شفتيها وعلّقت بإيجاز: «يبدو أن أخت دانييل تركت لديك انطباعاً قوياً، ما الذي جعلك تصدّقها؟ هل تملك إثباتاً على أنها تقول الحقيقة؟».

إنه لا يملك شيئاً!

أجابها بصلابة قائلاً: «صدقيني، لقد صُدمت مثلنا تماماً. لا يمكنك لومها على ما فعلته أختها».

بدت لوسيا قاسية وهي تقول: «ألم تقم تس بالاتصال بوالدتها؟ أعذرني، أعلم أنني قديمة الطراز لكن.. ألم تعد الفتيات الإنكليزيات يتصلنّ بأهاليهن هذه الأيام؟».

أجابها رايف بنزق: «إنهن يفعلن بالطبع. ولكن والدة آشلي ليست والدة تس، فقد تزوج والدهما مرتين وتيريسا هي الأخت الأكبر».

قالت: «الحمد لله على أنّ بعض المؤمنين ما زالوا يحافظون على عهد الزواج».

أدرك رايف أن هذه الملاحظة موجّهة له أيضاً، ولكنه فضّل ألاّ يعلق على الموضوع، إلاّ أنه شعر بالسعادة حين أجابها بجفاء: «أعتقد أن والدة تيريسا توفيت».

ثم أضاف لئلا يبدو في موقع الدفاع: «على أيّ حال، وكما توقعت، لم تكن آشلي في منزل والدتها، ويبدو أنها كذبت على أختها بهذا الشأن».

هزّت لوسيا رأسها: «يراودني الشك حيال الموضوع».

حاول رايف السيطرة على أعصابه وأجابها بإشمئزاز: «حسناً، لا يمكنني تغيير موقفك».

قالت: «لكن عليك الاعتراف بأنه من المستغرب ألاّ تعرف هذه المرأة، تيريسا مكان أختها. لما بحق السماء تبقي مكان وجودها سراً عن أختها؟».

أجابها رايف بحزم: «لأنها علمت أن أختها لن توافق على فعلتها. لا أعلم يا أمي ولكنني أصدّقها.. أعتقد أن عليك أنت أيضاً أن تفعلي».

أطلقت لوسيا شتيمة وفكّر كم يبدو الموقف سخيفاً، إذ عليه أن يبرّر دوماً أمامها لأنها تشعره أنه لا يزال في مثل سن ماركو.

وبعد أن ظهر لها أن رايف لن يقول المزيد سألته: «إذاً، ماذا سيحدث الآن؟ هل المعلومات التي أعطاك إيّاها ڤيرديسي هي وسيلتنا الوحيدة للوصول إلى ماركو، إلاّ إن اتصلت تلك المرأة بأختها؟».

قال رايف: «سأتحدث إلى ماريا، فهي وماركو يتشاركان الكثير من الأسرار ولعلها تعرف مكانه. نحن لا نعلم سوى أنهما وصلا إلى جنوى، أعتقد أن آشلي توقعت أن نتحرى عنهما في شركات الطيران فلم تشترِ بطاقتي السفر إلى ميلانو إلاّ بهدف تضليلنا».

- وهل ستساعدنا معرفتنا بوجودهما في جنوى؟

- حسناً.. من الواضح أنها لا تعرف أننا كنا نراقبها، ولا سبب يجعلها تعتقد أننا نتحقق مما إذا أكملا الرحلة أم لا، كما أنها تتوقع أن نبحث عنهما في ميلانو.

تقبّلت لوسيا تحليله قائلة: «جيد جداً، لكن جنوى مدينة كبيرة فكيف يمكننا أن نجدهما هناك؟».

أجابها رايف: «آمل أن تكون آشلي قد استأجرت سيارة».

أنهى رايف قهوته، ووقف مجدداً ثم مشى بعدم ارتياح إلى الشرفة لينظر إلى كروم العنب، التي بدت ضبابية بسبب انعكاس أشعة الشمس عليها.

- يقوم ڤيرديسي بجولة على وكالات تأجير السيارات. إن استخدمت اسمها الحقيقي فسنجدهما بالتأكيد.

- وإن لم تكن قد استخدمت اسمها؟

- تطلب وكالات التأجير بطاقة هوية، ولا بدّ أنها استخدمت جواز سفرها أو بطاقة العمل. وفي كلا الحالتين ستضطر لإعطاء عنوانها، أعني عنوان المكان الذي تنزل فيه أو بالأحرى ينزلان فيه.

- هذا رهيب.. كلّما أغمضت عيني أتخيّل ماركو مع تلك المرأة، يا للفظاعة!

رأى رايف أنها تفكر بشكل هستيري فقال: «لا تبالغي أمي.. يبدو أن ماركو يملك خبرة أكبر ما توقّعنا، ولا بد أنّ ما لديه جذب انتباه امرأة في هذه السن».

رمقته لوسيا بنظرات مرعبة وهي ترد: «لا تكن هجومياً، كيف يمكنك أن تقول كلاماً كهذا؟ ماركو مجرّد صبي صغير».

فقد رايف صبره: «سيبلغ السابعة عشرة من عمره قريباً، أي أنه لم يعد طفلاً بل أصبح رجلاً».

وصمت قليلاً ثم تابع يقول: «ولديه رغبات الرجل وحاجاته».

شعرت لوسيا بتصلّب في عمودها الفقري، فوقفت وقالت ببرود: «حسناً.. أرى أنك لست مستعداً لمناقشة الموضوع بإحساس لذا من الأفضل أن أذهب. كان يجب أن أتوقع هذا منك فأنت لم تتصرف يوماً بقسوة مع ذلك الصبي، وها نحن نعاني من النتائج».

زفر رايف بقوة: «أنت لا تعانين يا أمي إلاّ من بعض الغيرة. أعلم أنك تعتقدين أن الشمس تشعّ من ماركو. حسناً.. لطالما فضّلته على ماريا لذا عليك أن تتساءلي عما إذا كنتِ مسؤولة عن عصيانه».

صدمت لوسيا وقالت: «هل تلقي اللوم عليّ؟».

أجابها رايف بضجر: «أنا لا ألومك، بل أنت من يفعل ذلك. وكل ما أفعله هو الدفاع عن نفسي».

قالت والدته بإيجاز: «كما فعلت حين قرّرت جينا أنها سئمت من عدم اهتمامك؟ لطالما تجاهلت عائلتك يا رافاييل. فوفقاً لحساباتك العمل يأتي أولاً».

قال رايف من بين أسنانه: «جينا خانتني مع مدير أعمالي».

ردّه لم يردع لوسيا فتابعت تقول: «لقد شعرت بالوحدة رافاييل، احتاجت للحب وأنت لم تعطها إياه، فماذا تتوقّع منها؟».

الثقة والوفاء! لم يشأ رايف أن يجادلها فقد أصبح هذا النقاش من الماضي. جينا لم تكن تحتاج حبّه فقد أقامت علاقات غرامية مع سواه. ولعل علاقتها مع غيدو مارشينا كانت سبب الطلاق، لكنها لم تكن الوحيدة. لم يخبر والدته بهذا

من قبل ولا ينوي أن يفعل الآن.

قال بصوت طبيعي: «دعينا لا نلوم أنفسنا، فماركو في مكانٍ ما وسوف أجده».

هزّت لوسيا كتفيها وردّت بازدراء: «إن استطعت ذلك».

أرادت أن تكون لها الكلمة الأخيرة وتركها رايف تستمتع بانتصارها الصغير هذا.

www.elromancia.com

٣ - ورطة غريبة

كما توقعت تس، اتصلت والدة آشلي بها مجدداً بعد رحيل كاستيللي مباشرة. فبعد أن تأكدت تس من أن آشلي غير موجودة كل ما أرادته هو إنهاء المكالمة.. عندما رنّ الهاتف في المكتب الصغير أخذت تس تصلّي لكي تكون آشلي هي المتصلة وليس والدتها.

قالت والدة آشلي وقد عرفت صوتها: «تيريسا؟ ما الذي يجري؟ ما الذي تفعلينه في المعرض؟ أين آشلي؟»

تنهدت تس، فحين تكلمت مع أندريا منذ قليل لم تخبرها أنها في المعرض.

- كيف حالك أندريا؟

- لا يهم كيف حالي. لقد اتصلت منذ خمس دقائق لتتحدثي إلى آشلي. وحسب معلوماتي لا تزال في بورتو سان ميشيل.

- هل تحدّثت إليها مؤخراً؟

لم تستطع تس إخفاء الحماس في صوتها وقد لاحظت زوجة والدها ذلك فقالت باختصار:

- بالطبع تحدّثت إليها.

وأردفت بتشكك: «ولِمَ لا أفعل؟ إنها لا تزال تهتم لأمري».

- حسناً، بالطبع إنها تَفعل...

- لقد شجّعتها على ترك المنزل والعيش وحدها كما تفعلين أنتِ، لكن هذا لا يعني أن آشلي ليست واعية. أعلم أنك لطالما شعرت بالغيرة من العلاقة التي تربطني بها تيريسا. لكن، إن كانت هذه خدعة منك لأفكّر بالسوء...

- لا، لم أقصد ذلك.

لم تتمكّن تس من استيعاب ما فكرت فيه أندريا، فهي لم تشجع آشلي يوماً على مغادرة المنزل والعمل في إيطاليا، وهي بالتأكيد لم تشعر بالحسد من علاقتها بأمها. لعلها شعرت ببعض الغيرة لأن والدتها ليست موجودة لتشاركها آمالها ومخاوفها، لكن عمتها كايت كانت بديلاً رائعاً.. فعوّضتها ما خسرته من محبة.

سألتها أندريا بنبرة اتهامية: «إذاً، لماذا اتصلت بي؟ لأشعر بالقلق من دون سبب وأظن أن مكروهاً أصابها؟».

- هذا غير صحيح!

- ما الأمر إذاً؟ لقد اتصلت لتسأليني إن كنت أعرف أخبارها وكأنها مفقودة. ألا تعرفين رقم هاتفها الخلوي؟ لما لا تتصلين بها؟

ترددت تس ثم قالت: «هاتفها لا يعمل و.. حسناً كنت أتساءل إذا ما ذهبت إلى انكلترا، وأنا أهتم بالمعرض في غيابها».

سكتت قليلاً علّها تجد ما تقوله ثم تابعت: «سأل زبون عن نوعٍ من الطلاء و... فكرت في أن أتصل بها لأستعلم».

عبّرت أندريا عن عدم تصديقها وشعرت تس أن آشلي وضعتها في موقف محرج وغير عادل، فقد تركتها تتعامل مع والد صديقها الغاضب، ومع أندريا أيضاً.

على أيّ حال، لم تكن تس معتادة على إثارة قلق الآخرين بدون سبب فأخذت نفساً عميقاً وقالت:

- أنا متأكدة من أنها ستتصل بي مجدداً في الأيام القليلة المقبلة.

ثم أضافت في سرّها: عليها أن تفعل ذلك. فآشلي تعلم أن عليها العودة إلى المدرسة بعد عشرة أيام.

وتابعت تقول لأندريا: «ولكن.. إن اتصلت بك، هل يمكنك أن تطلبي

www.elromancia.com

منها الاتصال بي فال. . الزبون الذي أخبرتك عنه على عجلة من أمره ويودّ التحدث إليها».

صمتت أندريا لفترة طويلة حتى ظنت تس أنها أقنعتها لكن وقبل أن تنهي الحديث متحججة بوصول زبون آخر سألتها أندريا مجدداً بسرعة والقلق واضح في صوتها:

– أنت لا تملكين أي فكرة عن مكان وجودها؟ هل تظنين أن عليّ أن أذهب إلى هناك؟ إن كانت مفقودة يجب إبلاغ الشرطة عن اختفائها.

أكدّت لها تس وهي تشتم أختها مجدداً على الموقف الذي أقحمتها فيه:

– آشلي ليست مفقودة. . صدقيني أندريا. . لا حاجة لأن تقلقي، آشلي أخذت عطلة لتستريح قليلاً، ولا بدّ أنها أقفلت هاتفها كي تريح نفسها من الاتصالات المزعجة.

– آمل ألاّ يكون قصدك أنّ اتصالي بابنتي سيسبب لها الإزعاج.

لكن نبرة القلق اختفت من صوتها على الأقل، فأجابتها تس: «بالطبع لا».

حاولت تس اكتشاف ما قالته آشلي لوالدتها عن علاقتهما، فأندريا لم تعاملها بطيبة يوماً لكنها لم تبدُ عدائية بهذا الشكل من قبل.

بدا الاستسلام واضحاً في صوت المرأة وهي تقول: «حسناً. . . أعتقد أن عليّ تصديق كلامك. ولكن تذكّري أنني أتوقع أن تبقيني على اطّلاع على جميع التطورات وإن تحدّثت إلى آشلي فأخبريها أنني أتوقع منها اتصالاً».

تمكنت تس من إنهاء الحديث بطريقة ما وشعرت بالراحة وهي تعيد السماعة إلى مكانها، لكن سخطها لم يخمد.

وارتسمت صورة كاستيللي أمام عينيّ تس ولكنها رفضت أن تسمح للقائها بالإيطالي أن يؤثر في مزاجها. كما أنه مجرّد شخص رأى أنها لا تستحق احترامه.

لم يكن هذا ما أغرتها به أختها لتقبل بالحلول مكانها. فقد وعدتها آشلي بأن

تمضي أياماً طويلة مشمسة على الشاطىء وليالٍ جميلة باكتشاف المقاهي والمطاعم الشهيرة. هذا لا يعني أن تس تهتم كثيراً بالمقاهي، لكن فكرة تناول الطعام في مطاعم إيطالية حقيقية بدت مغرية لها. كما كانت تتطلع بشوق لتمضية بعض الوقت على الشاطىء.

أما الآن فقد تغيّر الوضع. قضت أمسيتين في ترتيب شقة آشلي وتنظيم دفاتر حساباتها، وها هي الآن تواجه موقفاً مزعجاً بسببها، وهذا غير مستغرب من آشلي، كما فكرت تس بجفاء. فمن عادتها أن تدوس مشاعر الآخرين إن كان ذلك يشعرها بالسعادة.

بدا الوضع محبطاً ومخيباً لآمال تس.

كانت قد خططت لتناول العشاء في مطعم محلي قبل العودة إلى الشقة لكنها غيرت رأيها، فقد أمضت نهاراً صعباً وهي تتنفض من التوتر كلما دخل أحدهم إلى المعرض.

وفيما كانت على وشك إقفال المعرض ظهر أمامها رجلٌ. للحظات خطرت لها فكرة سخيفة وهي أن كاستيللي عاد، فانتفض قلبها بسرعة وشعرت بالاختناق، لكنها أدركت أنها أخطأت حالما تحرك الرجل.

إنه سيلفيو باميري الشاب الذي يدير المحل الرياضي المجاور.

من الغباء أن تخلط بين هذا الشاب وبين كاستيللي. صحيح أن سيلفيو أسمر لكن هذا هو وجه الشبه الوحيد بينهما.

– مرحباً. .

ولاحظ تعابير وجهها فأردف: «اعذريني، يبدو أني أفزعتك».

حاولت تس المحافظة على هدوئها وتمتمت: «كنت مستغرقة في التفكير، وقد فاجأتني. . هذا كل ما في الأمر».

عبس سيلفيو وسأل فجأة: «هل من أخبار سيئة؟ لا تقولي لي إنّ مكروهاً حصل لوالدة آشلي».

فردّت تس بجفاء: «ليس على حد علمي... هل أمضيت نهاراً جيداً».

هزّ سيلڤيو كتفيه وقال: «كيف تقولونها بالإنكليزية؟ تقريباً؟ نعم تقريباً. كان نهاري عادياً، ماذا عنك؟».

شعرت تس برغبة قوية في الضحك لكنها شكت في أن يفهم سيلڤيو تصرفها الهستيري. قالت وهي تهم بإغلاق ستائر النوافذ:

- كان يومي ممتعاً!

ثم تابعت بصدق: «لكنني لست آسفة على انتهائه».

قال سيلڤيو وقد رفع حاجبيه بتساؤل: «رأيت رافاييل دي كاستيللي يدخل المعرض باكراً».

تساءلت تس إن كانت تظلمه بظنها أن مجيئه الآن يهدف فقط إلى معرفة سبب حضور كاستيللي صباحاً.

ثم تابع يقول: «إنه شخص معروف جداً في سان ميشيل. في المواسم، يعمل العديد من الناس لحسابه في قطاف العنب، أتعلمين ذلك؟».

حدقت إليه تس وبللت شفتيها ثم سألته: «هل تعرفه؟ إذن هل يملك كروم عنب واسعة؟».

بدأ سيلڤيو ينظر إليها بحشرية: «أعتقد ذلك. لا أعرفه.. حسناً.. ليس معرفة شخصية، هل تفهمينني؟».

بدأت تس تفهم سبب اهتمام آشلي بماركو. وترددت قليلاً ثم سألته محاولة أن يبدو صوتها عادياً:

- وآشلي؟ أظن أنها تعرف ابنه، صحيح؟

هزّ سيلڤيو رأسه وقال: «ماركو، نعم ماركو إنه... الرسام، أليس كذلك؟ أظن أنه يحب عرض لوحاته».

حبست تس أنفاسها. لم يذكر كاستيللي أن ابنه يريد أن يصبح رساماً، ولعل هذا ما يفسّر معرفة آشلي بماركو. عندئذ، التفتت حولها وسألته: «هل هذه

اللوحات من رسمه؟».

ضحك سيلڤيو وقال: «بعضها... لكنه طموح، أليس كذلك؟».

هزّت تس رأسها وقالت: «نعم، وهل يوافق والده على موهبته؟».

فأجابها سيلڤيو باقتضاب: «لا أظن ذلك. آل دي كاستيللي لا يضيعون أوقاتهم في هذا النوع من المهن بالإضافة إلى أن ماركو لا يزال في المدرسة».

خطر لتس أن هذا يشرح الكثير: «حسناً.. شكراً على ملاحظتك».

سألها سيلڤيو: «ماذا عن والد ماركو؟ لم تخبريني ماذا أراد؟».

- آه.. كان يبحث عن آشلي لكنه لم يخبرني السبب.

لم يبدُ سيلڤيو مقتنعاً لكن تس قررت أن ما قالته كان كافياً.

- علي أن أرحل، سأمرّ إلى السوبرماركت قبل أن أذهب إلى المنزل.

اقترح سيلڤيو على الفور: «يمكنك تناول العشاء معي، فمطعمي المفضّل لا يبعد كثيراً».

- لا أظن...

- لن ترفضي طلبي أليس كذلك؟

ارتسمت نظرة وقحة على وجهه، وكانت تس قد اكتفت بما واجهته اليوم فقالت بحزم:

- أنا واثقة من أن العديد من الفتيات يرغبن بالخروج معك لتناول العشاء سيلڤيو.. أنا آسفة لكنني واجهت نهاراً طويلاً وأنا متعبة جداً. لا أظنني سأكون مرافقة مسلية الليلة.

احتج قائلاً: «لكن آشلي أخبرتني أنك ستسعدين بالخروج معي، قالت إنك لست مرتبطة».

تساءلت تس عما أخبرته آشلي لهؤلاء الناس فقالت: «حقاً؟ إنها مخطئة سيلڤيو، لدي حبيب».

وفكرت في سرّها: حسناً، لدي أصدقاء كثر لكن ما من داعٍ لإخباره بأنّ ما

من رجل مميز في حياتي.

هز سيلفيو كتفيه وقال بلطف: «لكنه ليس هنا الآن!».

تنهدت تس وقالت: «حتى لو...».

بدا أنه لم يقتنع بجوابها فقاطعها قائلاً: «ربما أمكننا الخروج في يوم آخر».

بعدئذٍ، توجّه إلى الباب ثم قال لها: «إلى اللقاء.. أراك غداً».

انتظرت تس حتى خطا سيلفيو خارج المعرض فسارعت لإقفال الباب ثم أسندت ظهرها إليه وأطلقت تنهيدة ارتياح.

يا له من يوم صعب... أولاً كاستيللي والآن سيلفيو. ستشعر بالفرح حالما تصل إلى الشقة حيث ستكون أكيدة من أنّ أحداً لن يزعجها، إلا أن كان لدى آشلي المزيد من الأسرار التي لم تكلف نفسها عناء كشفها.

أرغمت تس نفسها على النوم بعد أن تناولت السلطة التي حضرتها. ولم تتمكن من النوم بشكل عميق إلا مع ساعات الفجر، وحين استيقظت كانت الشمس تشع من خلف الستائر.

وضعت إبريق القهوة على النار ودخلت لتأخذ حماماً ساخناً. حين أنهت حمامها لفّت نفسها بإحدى المناشف القديمة ثم سكبت فنجان قهوة وخرجت إلى الشرفة الصغيرة.

تقع شقة آشلي في الطابق العلوي لڤيللا في ڤياسان جيوڤاني. ورغم أن المبنى ليس جميلاً إلاّ أنّ المدخل والردهة الرئيسية نظيفان.

كانت شقة آشلي بسيطة ومريحة، وقد فرشتها آشلي بالسجاد والأغطية وعلّقت الستائر الجميلة على النوافذ الصغيرة.

استندت إلى حافة الشرفة وحاولت التخلّص من الشعور بأنها مخدوعة... لقد كذبت آشلي عليها، الوضع لم يتغيّر أبداً بالنسبة إليها، فستبقى لتحلّ مكان أختها في العمل ولن تلوم إلاّ نفسها إن لم تستمتع بالعطلة المميّزة في هذا الجو الرائع.

لكن بدا من الصعب عليها ألا تفكر بما تقوم به آشلي، فتورّطها مع مراهق تصرّف جنوني. لكن، لطالما كانت لآشلي قوانينها الخاصة ولا تزال تس تذكر كيف اعتاد والدهما أن يتذمّر من سلوك ابنته الصغيرة الغريب.

أدركت تس أن فنجانها أصبح فارغاً وأنها بدأت تضيّع وقتها، فدخلت مجدّداً إلى غرفة النوم لتجد ثياباً ملائمة ترتديها. تغاضت عن الفكرة التي طرأت على ذهنها بأن زيارة دي كاستيللي أثّرت في اختيارها لملابسها، فاختارت فستاناً بلون القشدة بدل التنورة التي كانت ترتديها بالأمس. كما اختارت حذاءً خفيفاً من قماش بدلاً من الحذاء الرياضي.

نزلت الطوابق الثلاثة لتخرج إلى الهواء الدافىء فيما مشاعر الارتياح تتعاظم في داخلها.

قررت تس ألا تسمح لآشلي أو لكاستيللي بأن يفسدا عطلتها، وفكّرت في أن تقفل المعرض باكراً اليوم لتمضي بقية يومها على الشاطىء.

سمعت صوت الهاتف يرنّ وهي تدخل المعرض وفكّرت في أنّ آشلي قد تكون المتصلة، فأسرعت: «آلو؟»

- تيريسا؟

خاب أمل تس. إنها والدة آشلي، كان عليها أن تعرف ذلك.

- تيريسا أين كنت؟ حاولت الاتصال بك في الشقة ولم تجيبي؟

- أظن أنني كنت في طريقي إلى هنا.

حاولت أن تتكلم بصوت لطيف رغم أنها شعرت برغبة في الصراخ ثم تابعت بتفاؤل: «هل اتصلت بك آشلي؟»

- لا!

عكست نبرة صوتها مشاعر القلق وعدم الصبر وهي تردف: «وأنت؟»

أجابتها تس بجفاء: «لو فعلت لاتصلت بك».

سمعت أندريا تأخذ نفساً عميقاً قبل أن تقول: «لا داعي لأن تتكلمي

معي بهذه اللهجة. إن كنت لا تعرفين مكان أختك فهذه غلطتك وليست غلطتي».

ابتلعت تس غضبها، إذ لا فائدة من الشجار مع والدة آشلي الآن. قالت:

- اعتقدت أنها ستبقى على اتصال بي وقد تحدّثت إليها منذ أيام.

علّقت أندريا بسخط وغضب: «لكنك لم تخبريني بذلك أمس».

تنهّدت تس وهي تقول: «نسيت».

فاتهمتها أندريا: «أو أنك لم تخبريني لتجعليني أقلق فقط. ألم تسأليها أين هي؟»

لا، ولما تفعل ذلك؟ أبقت تس هذا السؤال لنفسها وقالت لأندريا: «لم أفكر في الموضوع».

وكان جوابها صادقاً ثم تابعت: «على أي حال، أعرف أنها ستتصل بي قريباً حين يتسنى لها الوقت لذلك».

علّقت أندريا بتهذيب: «أعتقد أن العلاقة بيننا ليست جيدة تيريسا، ولولا ذلك الزبون الذي أراد التحدث إلى آشلي، لما عرفت بالأمر أبداً».

وخطر لتس أنها هي أيضاً ما كانت لتعلم بالموضوع لولا ذلك الزبون. ساد الصمت بينهما وقبل أن تتمكّن تس من التفكير في ما ستقوله تكلّمت والدة آشلي:

- أتعلمين؟ لدي إحساس غريب بأنك تملكين معلومات عن الموضوع أكثر مما تعترفين به. لا بد أن آشلي كانت يائسة كي تطلب منك أن تحلّي مكانها.

رفضت تس أن تجيب، إلاّ أن والدة آشلي تابعت بعناد: «كل ما يمكنني فعله هو ترك الموضوع لك في الوقت الحاضر. لكن إذا لم تسمعي منها خبراً جديداً حتى نهاية الأسبوع فسأسافر إلى إيطاليا بنفسي لأرى ماذا يجري هناك».

أخفت تس آهة في داخلها وأجابت: «القرار قرارك».

توقعت أندريا أن تناقشها تس لكن هذا الجواب أسكتها: «نعم إنه كذلك،

حسناً.. عندما تتصل بك آشلي اتصلي على الفور، هل تعدينني بذلك؟».

- بالتأكيد.

تمكّنت تس من إنهاء المكالمة من دون أن تعطي تلك المرأة رأيها في تصرّف آشلي. وبعد أن وضعت السماعة مضت دقائق عدة تحدّق بكآبة. هذه العطلة تحولت فجأة إلى محاولة لإظهار براءتها بعد أن أصبحت في موقع الاتهام. فكّرت بمرارة بأن هذا ليس عدلاً لأن الذنب ليس ذنبها في اختفاء آشلي، أو في اختفاء ابن كاستيللي. فلماذا إذن عليها أن تشعر بالذنب؟

www.elromancia.com

٤ - حديث الروح

أتى العديد من الزبائن إلى المعرض وأمضت تس وقتاً طويلاً في التحدث إلى ثنائي إنكليزي من مانشستر يزور إيطاليا للمرة الأولى.

شعرت براحة كبيرة حين حان وقت إقفال المعرض، وعادت إلى الشقة لقضاء أمسية أخرى وحيدة.

في صباح اليوم التالي شعرت بنشاط أكبر، بعد أن أمضت ليلة هادئة نسبياً. رفضت تس التفكير في ما سيحدث إن لم تظهر آشلي قريباً، فارتدت سروالاً قصيراً زهري اللون وبلوزة من دون كمين.

قرّرت عدم استخدام السيارة والذهاب إلى المعرض سيراً على الأقدام.

كان الصباح مشرقاً كالأمس، ما جعل تس تشعر بالتفاؤل. مهما كان ما فعلته آشلي سيئاً فعليها أن تتذكر أنها تعرّفت إلى هذا الحي الإيطالي الجميل بفضلها.

ألقى العديد من الناس التحية عليها وهي في طريقها إلى البلدة، وتمكّنت من الإجابة بكلمات مناسبة.

لقد بدأت لغتها الإيطالية تتحسّن. وقبل مواجهة هذه المشاكل مع آشلي كانت تنوي العودة من جديد إلى إيطاليا، فقد فكرت بزيارة فلورنسا والبندقية.

فتحت باب المعرض وكالعادة أخذ جهاز الإنذار يرن فأسرعت لتطفئه، قبل أن تفتح باب المكتب لتضع حقيبة يدها على الطاولة. وعلى الفور، رن جرس الهاتف.

تباً، لم تكد تصل إلى المعرض حتى أراد أحدهم التحدث إليها. وضعت تس الفطيرة على الطاولة ورفعت السماعة متوقعة الأسوأ: «معرض ماديسي».

- آنسة دانيل؟

ابتلعت تس ريقها بصعوبة وخفق قلبها بسرعة إذ تمكّنت من معرفة الصوت بسهولة. وقالت بتهذيب:

- سنيور دي كاستيللي.. هل عرفت شيئاً عن ابنك؟

تنهد رايف وقال: «لا. أعتقد إذن أنك لم تعرفي شيئاً عن اختك».

خفّ حماسها وهي تقول: «لا ولا أمها أيضاً».

- فهمت، هلْ تحدّثت إليها؟

- نعم.. اتصلت بي أندريا.

لم تتمكن من إخفاء المرارة في صوتها ولاحظ كاستيللي ذلك فتمتم بعطف:

- تبدين محبطة عزيزتي، والدة آشلي تلومك، أليس كذلك؟

سألته تس بجفاء: «كيف عرفت؟ نعم إنها تلومني. كان عليّ برأيها أن أسأل آشلي أين ستذهب قبل أن أغادر إنكلترا».

- لكنك ظننت أنها ستذهب لزيارة والدتها، أليس كذلك؟

- أندريا لا ترى الأمور بهذا الشكل. على أي حال..

قال بلطف: «مسكينة تس، هذا ليس سهلاً عليك أبداً».

شعرت تس بالإشفاق على نفسها أيضاً: «لا ليس سهلاً».

حاولت أن تتكلم بطريقة عملية، فأضافت: «إذن.. هل هذا هو السبب الوحيد لاتصالك؟ لكي تسأل عن آشلي؟»

فردّ بنبرة يكتنفها الغموض: «ولأسباب أخرى أيضاً».

لم يشأ أن يفسّر ما يعنيه فقال على الفور: «إلى اللقاء عزيزتي».

وضعت السماعة وهي تشعر بالإحباط.

أدركت أنها لم تفتح المعرض بعد، فتوجهت إلى صالة العرض وفتحت الباب فتدفقت أشعة الشمس إلى الداخل ما جعلها تغمض عينيها. بدت الأمور أكثر

إشراقاً في دفء أشعة الشمس.

لكن قلقها على أختها كاد ينسيها أنها تحب الشعور بالحرية وبدت خطّتها للتسكع على الشاطىء خلال النهار بعيدة المنال. وقفت لدقائق تراقب الحركة في الخارج، وحاولت عدم الشعور باليأس. لم تشأ التفكير في ما ستفعله إن لم تظهر آشلي يوم الجمعة. لكنها لم تستطع منع نفسها من تصوّر والدتها قادمة لتنضم إليها في إيطاليا ولتبحث عن ابنتها.

أخذت تراقب أحد المتزلجين على المياه وهو يترنّح ويفقد توازنه فيسقط في المياه.

لم تتمكن تس من حبس قهقهة صغيرة. وبدا أن رواد الشاطىء كلهم يستمتعون برؤيته في ذلك المأزق. لم يكن الموقف مضحكاً لكنها لم تتمكن من منع نفسها من الضحك.

سمعت صوتاً منخفضاً يقول من خلفها: «تبدين أكثر سعادة اليوم، سنيورينا».

التفتت تس لترى رافاييل كاستيللي يستند إلى الحائط بجانب الباب. فكّرت في أن ملامحه الداكنة تبدو مألوفة جداً لديها، لكنها ما لبثت أن وبّخت نفسها حين أدركت أنّ هذه الفكرة سخيفة.

لم تتوقع تس رؤيته مجدداً بهذه السرعة فقالت بغطرسة غير مرحبة:

- سنيور دي كاستيللي، لم تقل إنك ستمرّ اليوم.

ابتعد عن الحائط واستقام في وقفته ثم قال: «ولم أكن أنوي ذلك، لكنني مررت صدفة».

أرهبها مظهره الواثق والمسيطر. كان يرتدي ثياباً عادية بعكس المرة السابقة، لكن سرواله الأسود وسترته الحريرية لم يكونا أقل أناقة من ثيابه الرسمية.

وتابع يقول: «من أخبرك أنني أدعى دي كاستيللي؟ هل تحدّثت إلى آشلي؟».

دافعت تس عن نفسها: «لا، لم أفعل».

دخلت إلى المعرض ولحق بها رايف. خطر لها أن الرجال المتزوجين لا يظهرون عادة بهذه الوسامة.

لم تشأ أن تتصرف مثل أختها، فتهتم بشخص لن تتمكن من الحصول عليه أبداً. أضافت وهي تحاول إظهار عدم اكتراثها: «هذا هو اسمك، أليس كذلك؟».

وصمتت قليلاً ثم تابعت بجرأة: «قيل لي إنك شخص معروف في المنطقة».

ضاقت عيناه وبدا واضحاً أنه امتعض من فكرة تحدّثها عنه مع أحدهم. وسألها:

- هل هذا ما قاله مصدر معلوماتك؟ أظن أنه مخطىء أو لعلك أسأت فهمه.

أسرعت تس تفتح الستائر، أرادت أن تقوم بأي عمل يشغلها عما يثيره فيها وجودهما معاً في الغرفة المظلمة.

بلّلت شفتيها وقالت: «لا أظن ذلك، هل نسيت شيئاً؟».

قوّس كاستيللي حاجبيه. بدا واضحاً أن خبرته مع الجنس الآخر أوسع بكثير من خبرتها في هذا المجال. ورغم أنه رجلٌ متزوج إلاّ أنّ ذلك لن يمنعه من أن يتسلى قليلاً على حساب أعصابها.

أخيراً قال وهو يلاحقها بنظراته فيما هي تتحرك في الغرفة:

- في الواقع كنت في طريقي إلى ڤياريغو حين رأيتك تقفين على باب المعرض وقد بدوت حزينة.

حبست تس أنفاسها وقالت بحدة: «لا حاجة لأن تشعر بالأسف عليّ سنيور دي كاستيللي. في الواقع، كنت أضيّع بعض الوقت وأنتظر لتفتر قهوتي قليلاً».

نظر كاستيللي إليها وقال: «حسناً، كما تشائين عزيزتي، لكنني أفهم ما رأيت على وجهك».

أجابت تس بتصلب: «كنت أراقب أحد المتزلجين وقد جعلني أضحك.

ربما أسأت فهم تعابير وجهي».

– لا تحاولي الدفاع عن نفسك، فمن الطبيعي أن تشعري بأن هذه العطلة لم تجرِ كما خططت لها.

قالت تس وهي تتّجه إلى المكتب: «أنت محق. ولكن، أعذرني الآن...».

إن اعتقدت أنه سيفهم ما تريد ويرحل فهي مخطئة. وبينما وقفت تحدّق إلى فضلات فطورها غير الشهي رأت ظلاً على طاولة المكتب.

– تعالي معي.

صدمتها كلماته كما صدمها وجوده في المكتب والتفتت لتراه يقف عند الباب. ضاقت عيناه الداكنتان كأنهما تضمانها، ما جعل الحرارة تغزو كل خلية من خلايا جسمها.

أدركت تس أنها تحدق إليه كمراهقة متيّمة فعادت تنظر إلى الفطيرة، وقالت من دون أن تعطي نفسها فرصة للتفكير بدعوته: «لا أستطيع! أنا آسفة، ولكن من اللطف منك أن تسأل».

– لماذا؟

حاولت تس المراوغة فسألته بدورها: «ماذا تقصد؟».

شرح لها وكأنها طفلة صغيرة: «لما لا يمكنك مرافقتي؟ إنه يوم جميل أليس كذلك؟».

– لا... أقصد نعم.

علمت تس أنها بدت غبية والذنب ليس ذنبها إذ لم يكن من حقه أن يضعها في هذا الموقف.

– إنه يوم جميل، لكن لا يمكنني أن أترك المعرض.

ابتسم كاستيللي وقال ساخراً: «لأن آشلي طلبت منك البقاء في المعرض؟ نعم... من الضروري أن تكوني مخلصة لها».

أجابته بصلابة: «لا داعي لسخريتك. علي أيّ حال، عليّ أن أبقى هنا فقد

تتصل بي».

عدّل كاستيللي وقفته وسألها: «أتظنين أنها ستتصل؟»

هزت تس كتفيها وردّت: «ربما».

قال كاستيللي بجفاء: «وربما لا، لدي إحساس بأن أختك لن تتصل إلا حين تصبح جاهزة للعودة».

كان لدى تس الشعور نفسه، لكنها لم تشأ الاعتراف بذلك.

أخيراً قالت وهي تفتش عن علبة المناديل الورقية: «مهما يكن».

أخذت تنظف بقايا الفطيرة وتابعت: «لقد وعدتها بالاهتمام بالمعرض، هذا كل ما في الأمر».

هزّ كاستيللي رأسه وأخذ المنديل الدبق من يدها وهو يقول: «دعيني أساعدك».

راح يجمع بقايا الفطيرة وهو ينظر إليها بطرف عينه.

شعرت تس برجفة في جسدها وأرادت أن تعترض على تصرّفه وتقول إنها تستطيع ترتيب الفوضى بنفسها لكنها لم تفعل، بل وقفت صامتة فيما راح ينظف الطاولة.

– هل من مغسلة؟ أود أن أغسل يديّ.

ابتعدت تس ودلّته على الباب المؤدي إلى الحمام. بعد قليل، عاد وهو يجفف يديه بمنديل ورقي رماه في سلة المهملات. بعدئذٍ اتكأ إلى الطاولة وكتّف يديه ثم قال:

– ألن تقدمي لي فنجان قهوة؟

كانت قد نسيت أمر القهوة، لكنها ما لبثت أن أخذت فنجاناً وملأته له. كانت يداها ترتجفان قليلاً إلا أنها تمكنت من إعطائه الفنجان من دون أن تسكب القهوة على الأرض وقالت: «ليس لدي حليب أو سكر».

فأجابها بلطف: «ولمَ نفسد نكهة القهوة بهما؟».

www.elromancia.com

خشيت تس أن يندم على كلامه حين يتذوق طعم القهوة المرة، إلا أنه قال بابتسامة مهذبة:

- طعمها مميز جداً.

لكنه لم يشرب الكثير من الفنجان بل وضعه جانباً بسرعة. أجابته تس باختصار وكأنها تذكّره بأنها لم تدعُه للانضمام إليها: «أنا واثقة من أنك معتاد على قهوة ألذ منها بكثير».

زم كاستيللي فمه وقال بتكبر: «أستطيع أن أثبت لك ذلك إذا ما قبلت دعوتي».

هزّت رأسها وقالت: «سبق أن قلت لك إنني لا أستطيع».

التمعت عيناه القاسيتان وهو يقول: «لعلك لا تثقين بي، أليس كذلك؟».

- ليس للثقة علاقة بالموضوع.

لكنه محق فهي تعرف القليل عنه.

مشى نحو باب المكتب ونظر إلى صالة العرض وهو يقول:

- ما الأمر إذاً؟ ما من زبائن. وأشك في أن يخيب أمل أحدهم إن أغلقت المعرض، فبيع اللوحات ليس بالتجارة الرابحة في هذه المنطقة، لذلك يفكّر سكوتولينو بنقل تجارته إلى فلورنسا.

تذكرت تس أنها رأت الاسم في أعلى الفواتير التي كانت آشلي تكتبها. أدركت أن كاستيللي يتكلم عن مالك المعرض، فسألته بدهشة: «السيد سكوتو لينو سينتقل من سان ميشيل؟ وهل تعلم آشلي بذلك؟».

- أشك في ذلك. أوغوستين ليس من النوع الذي يطلع موظفيه على مشاريعه خاصة حين يعني ذلك أن الموظف سيفقد عمله.

زمّت تس فمها: «وتقول لي إن الذي يراقب أختي لحسابك لا يقوم بتشويه سمعتها؟»

بدت سخريتها واضحة فرفع كاستيللي يديه عالياً وأجاب: «لست عادلة

معي تس، فأنا لست عدوّك».

فكّرت تس بقسوة: ولست صديقي أيضاً.

لكن مناداتها باسمها سببت لها إثارة لم ترغب فيها وأحدثت وخزاً قوياً في أعصابها.

توقعت أن يكون قد نسي اسمها، فمن المفترض أن يركز اهتمامه على آشلي وليس عليها. ورغم ذلك، حين لفظ اسمها بصوته المنخفض الجذاب والناعم كاد يغمى عليها لشدة تأثرها.

لحسن الحظ أنه لا يعلم ذلك. لذا، أصبح صوتها أكثر حدة وهي تقول: «لم تخبرني كيف التقى ابنك بآشلي. فنظراً لرد فعلك على هذه العلاقة لا بد أن لقاءهما لم يسرّك».

صمت كاستيللي طويلاً حتى ظنّت أنه لن يجيبها.

لكنها كانت مخطئة، فقد قال أخيراً: «التقيا في شهر أيلول الماضي، خلال موسم قطاف العنب. لا بد أن أحدهم دعا أختك إلى الحفلة».

عبست تس قائلة: «إذن لا بد أنك قابلتها أيضاً».

هز كتفيه وقال: «كما أخبرتك سابقاً.. من المفترض أني التقيتها لكنني لا أذكرها بسبب كثرة الزوار».

- ظننت أنهما التقيا في المعرض فقد فهمت أن ماركو مهتم بالرسم.

ركّز كاستيللي نظره عليها من جديد وكوّر شفتيه: «من أخبرك بذلك؟ يبدو أنك تقومين بالتحريات عزيزتي. إن اهتمام ابني بالرسم لم يظهر إلاّ بعد لقائه أختك، فهذا عذر لزيارة المعرض».

- تبدو واثقاً من كلامك.

هز كاستيللي كتفيه: «لم يظهر ماركو أي ميول فنية من قبل. إنه طالب علوم ولطالما كان مهتماً بوقائع الحياة لا بالأفكار المجرّدة».

علقت تس وهي تشعر بالانتصار: «لكن، ألم يقل جون كوكتو إن الفن علمٌ

في جوهره؟ كما لا يمكنك أن تنكر أن ليوناردو داڤينشي كان عالماً بالإضافة إلى كونه أكثر الرسامين شهرة في عصره».

نظر رايف إليها ساخراً وقال بجفاء: «تريدين أن تربحي هذا النقاش أليس كذلك؟ وباستخدام أقوال المشاهير يبدو أنك ستنجحين. ولكن لا تقولي لي إن افتتان ماركو بأختك هو كما يقول روسكن: «حديث الروح مع الروح» لأنني لا أصدق ذلك».

رافاييل دي كاستيللي أثّر فيها بذكائه. وعلى عكس مما قاله، فهي تشك في أن تفوز، لكنها تفهّمت مشاعره فهو محبط بالتأكيد بسبب الهوّة التي أحدثتها آشلي بينه وبين ابنه.

تمتمت بصوت منخفض: «لا أستطيع أن أتخيل ما تفعله آشلي. ترى والدتها أن عليّ إبلاغ الشرطة بأمر اختفائها».

بدا متفاجئاً: «الشرطة؟ لكن الأمر ليس جريمة».

شعرت فجأة بأنها تريد أن تطمئنه: «لا، تمكنت من إقناعها بألاّ داعي لتدخل الشرطة في الوقت الحاضر».

- شكراً.

من الواضح أن كاستيللي شعر بالارتياح فاستغلت تس ضعفه وقالت:

- أتصور أن تحرياتك الخاص لم يصل إلى نتيجة بعد؟

قال باستسلام: «لا بد أنه لا يزال في جنوى يتفقد وكالات تأجير السيارات، وحتى الآن لم يحالفه الحظ ليعرف مكانهما».

تنهدت تس وقالت: «أنا آسفة لذلك».

شعرت بالأسف من أجله تماماً كما شعرت به لنفسها. لانت قسمات وجهه وهو يقول:

- لم ترسمي صورة جميلة عن بلادي حتى الآن، أليس كذلك؟ أو ربما يجدر بي القول عن عائلتي. لكن رغم صغر سن ماركو إلاّ أني أعلم أنه ملاك أيضاً.

ابتسمت تس وقالت: «شكراً لقولك هذا».

أثّر صوته في حواسها حين قال بإصرار وتهذيب:

- من دواعي سروري. أنت لا تشبهين أختك أبداً، أليس كذلك أيتها الصغيرة؟

رغم إشارته إلى صغر حجمها إلا أن المودّة المفاجئة في كلماته جعلتها تتجاهل ذلك فقالت أوّل ما خطر ببالها: «هل أنت واثق من أنهما في جنوى؟ إنها مدينة كبيرة أليس كذلك؟»

قال بجفاء: «إنها مدينة كبيرة جداً. وفي هذه اللحظة لست واثقاً من أي شيء».

ثم ظهر في صوته القليل من الإرهاق وهو يتابع: «لذلك أنا ذاهب إلى ڤياريغيو فلعل ماركو أخبر شقيقته بمخططاته».

- شقيقته؟ لم أكن أعلم أن له أخت.

لِمَ قد تعلم ذلك؟ لسبب ما توقعت أن يكون ماركو وحيداً أو ربما هذا ما أملتَه فإن كان لكاستيللي أولاد كثر فسيصبح الوصول إليه أصعب.

كان ينظر إليها بلطف فتساءلت ماذا يخفي وراء هذا المظهر المهذب. أجابها أخيراً: «لقد تزوّجت ابنتي في نهاية العام الماضي. ماريا وزوجها كارل يملكان فندقاً صغيراً في قرية ليست بعيدة عن المدينة».

صمت قليلاً ثم تابع: «إن أتيت معي فستقابلينها بنفسك».

أخذت تس نفساً عميقاً. لم تتوقع أن يدعوها مجدداً فشعرت بالقلق. علمت أن عليها أن ترفض فإقفال المعرض تصرف غير مسؤول منها. كيف ستشعر ابنته إذا ظهر والدها مع امرأة غريبة؟ ستغضب كثيراً بالتأكيد.

لا، لا يمكنها أن تقبل، حتى وإن كان أخذ استراحة لهذا اليوم فكرة لا تقاوم. عليها أن تحافظ على سمعتها الجيدة، فالمعروف عن الإيطاليين أنهم يسعون إلى إغواء النساء، كما أن كاستيللي رجلٌ متزوج.

شعرت بالندم وهي تسمع كلماتها: «أنا آسفة. أعتقد أن زوجتك لن تكون سعيدة بذلك».

نظر إليها بغرابة: «زوجتي؟ ما علاقتها بطلبي منك مرافقتي في هذه الرحلة؟».

شعرت تس وكأن النيران تشتعل في داخلها إذ يبدو أنها ذكّرته بأفكار لم تخطر في باله.

- حسناً.. خطر لي أن.. أن أفراد عائلتك سيرون في ظهورك مع امرأة غريبة تصرفاً غريباً.

انبسطت أساريره وهو يعلق بهدوء: «تقصدين ظهوري مع امرأة جميلة؟».

وظهرت على وجهه ابتسامة أنارته: «تعتقدين أن زوجتي وابنتي لن توافقا على صداقتي مع الأخت الجذابة للفتاة التي هرب معها ابني؟».

أحسّت تس وكأن كمية الهواء تتضاءل من حولها حتى لم تعد تستطيع التنفس. لم تشعر في حياتها بالإحراج كما شعرت الآن: «إننا بالكاد.. أصدقاء سنيور. قصدت فقط...»

أكد لها بلباقة: «أعلم ما قصدته تس».

وشعرت برغبة في الصراخ بسبب إحباطها.

- اهدئي عزيزتي، ما من تضارب في المصالح. ليس هناك سوى ابنتي، فأنا وزوجتي نعيش منفصلين.

لم تقتنع تس: «ولكنها تعيش في منزلك، أليس كذلك؟».

حاول مضايقتها ممازحاً: «تعيش في منزلي؟... لا إننا مطلقان تس.. جينا تعيش في نيويورك».

٥ - زائرة غريبة

بدا أنها لم تصدّقه، وتفهم رايف ذلك فالطلاق ليس مألوفاً في بلاده. في الواقع، ألم تشعر والدته بالرعب لاتخاذه هذا القرار؟.

لكن رايف لم يقتنع بأنّ عليه قضاء حياته مع شريكة تهزأ بعهد الزواج، ويعتقد أن السبب الوحيد لقبولها الزواج به هو الهروب من والدها العجوز القاسي والصارم.

شبكت تس يديها خلف رقبتها ما لفت انتباهه إلى عنقها الجميل: «آسفة. فهذا ليس من شأني».

أذعن قائلاً: «لا».

أدرك أنه يتصرف بغرابة. يا الله! إنه كبير في السن لكي... ماذا؟... ليغازل فتاة صغيرة تكاد تكون في سنّ ابنته؟ حسناً، لعله يبالغ فهو في الثالثة والأربعين وناضج كفاية.

تابعت تس وقد فهمت تجاويه: «علي أيّ حال، لا يجدر بي إضاعة وقتك».

ثم أجبرت نفسها على الابتسام: «هل ستُعلمني إن كانت ابنتك تعرف شيئاً عنهما؟».

شعر رايف بأنه يتردّد مجدداً. فما العيب في دعوتها لمرافقته إلى ڤيغاريغيو. فهو يفعل ذلك لأسباب شخصية، إنها أخت آشلي وتستحق أن تعرف ما يجري. نعم، صحيح... هذا هو السبب.

قال لها متجاهلاً الحقيقة: «فكرت في أنك تودين طرح الأسئلة على مايا بنفسك، ألن أتمكن من إقناعك بتغيير رأيك؟».

www.elromancia.com

أرخت يديها على جانبيها وازداد الاحمرار الذي غطى وجنتيها طيلة تحدّثها معه. ثم أشارت إلى ثيابها وهي تقول: «لا يمكنني الخروج بهذه الثياب».

وجد كاستيللي مظهرها رائعاً فقال لها: «لِمَ لا؟ هذه ليست زيارة رسمية عزيزتي، ولا بد أنك اعتبرت ثيابك مناسبة لترتديها إلى العمل، أليس كذلك؟».

رفعت تس كتفيها فلفتت انتباهه إلى بشرتها العاجية الناعمة: «لا أعلم».

كانت لا تزال مترددة لكن كاستيللي علم أنها بدأت تضعف. وتابعت تقول:

- كم من الوقت سأتغيب عن المعرض؟

- ممم... ساعتان.

أو ربما ثلاث ساعات، فهو لم يكن صادقاً تماماً معها. أردف:

- وهل يهمّك ذلك؟ أيهما أهم لديك: أن ترضي رب عمل أختك أم أن تجدي آشلي؟

- حسناً، إيجاد آشلي بالتأكيد.

علم رايف أنه لم يترك لها خياراً، فأحنى رأسه قائلاً: «إذاً هل نذهب؟».

أطاعته تس وبحركة عصبية هزّت كتفيها وحملت حقيبتها.

كان قد ركن سيارته في منطقة يمنع الوقوف فيها فلاحظ أن عينيها اتسعتا لجرأته.

سألها وهو يجلس خلف المقود: «هل أنت مرتاحة؟».

وشعر بالرضى حين رأى حمرة الخجل تعلو وجهها. قالت بعد لحظات: «وكيف لا أكون مرتاحة؟ إنها فيراري أليس كذلك؟ لقد رأيت شعار الحصان على مقدمة السيارة».

أجفل رايف وردّ بجفاء: «إنها ستاليون».

- نعم.. إن ستاليون إيطالية.. لقد نسيت.

- أتمنى ألا يكون هذا انتقاداً.

التفتت تس إليه وقد غطّت خصلات شعرها الأشقر وجهها وقالت: «لا أعرف ماذا تقصد».

بدا كاستيللي متأكداً من أنها فهمت تماماً ما قصده ولكنه اختار ألاّ يجادلها فقال: «لا أهمية لذلك».

أدركت بشدة أنها تجلس إلى جانبه وذراعها لا تبعد سوى بضعة سنتيمترات عن ذراعه. أخذ نفساً عميقاً وقال: «هل تعرفين منطقة ڤياريغيو سنيورينا؟»

ترددت تس قبل أن تجيب، إلا أنها ما لبثت أن قالت: «لم يسبق لي أن أتيت إلى أيطاليا من قبل، لذا فكل ما أعرفه هو بورتو سان ميشيل... كما أني أدعى تس. أعرف أنك لم تنسَ اسمي بعد، أو لعلك تعتبر أنني هاجمتك ولذلك أصبحت تتحدث فجأة بلهجة رسمية معي؟»

كانت الطريق المنحدرة التي سلكاها منذ غادرا الخليج تؤدي إلى طريق بحري آخر يتّجه جنوباً، لكن رايف لم يكن يفكّر بالمنظر الجميل لبلدة ڤياريغيو بل تساءل بما سيجيبها من دون الخوض في التفاصيل. قال بصوت طبيعي: «أنت لم تهاجميني، وأنا لا أُهان بسهولة. لكن ربما أنت محقة، نحن لا نعرف بعضنا جيداً».

نظرت تس إليه وهي تسأله: «لِمَ دعوتني إذاً؟».

شدّت أصابعه على المقود بقوة وفكّر بجفاء في أنه سؤال جيد ولكن... ثم قال بحزم:

- أنت تعرفين السبب. لتتمكّني من التحدث إلى ماريا بنفسك.

بدت غير مقتنعة: «تظن أن وجودي سيدفعها إلى التكلّم إن كانت تعرف شيئاً، أليس كذلك؟»

لم يعجبه الشعور بأن عليه أن يكون دقيقاً، فقال:

- لا أعرف. ولكن بما أنها أول زيارة لك إلى بلادي، فربما ستتمتعين برؤية

www.elromancia.com

بعض المناطق.

حدقت إليه بنظرات ظهر فيها عدم تصديقها، وأشارت بلطافة: «لكنك لم تكن تعرف أنها زيارتي الأولى إلى إيطاليا، حتى أخبرتك».

زفر بقوة ما دل على نفاد صبره، ثم التوت شفتاه واعترف قائلاً: «لا، أنت على حق. كل ما أردته هو رفقتك».

ذهلت تس لما قاله وردّدت خلفه: «تريد رفقتي؟ لماذا؟».

لو أن امرأة أخرى طرحت هذا السؤال لاعتبر أنها تنتظر بعض الإطراء لكن تس ليست من هذا النوع. ظهر الارتباك في عينيها فلم يستطع إخفاء التسلية التي بدت واضحة في عينيه، والتي لاحظتها تس بالتأكيد. فتابعت تقول وقد أساءت فهم تعابير وجهه: «لا أعرف شيئاً عن مكان آشلي، ولا أعرف أكثر مما أخبرتك به. أريد إيجادها مثلك تماماً، وإن كنت تعتقد...»

قاطعها بلطف: «أنا أصدقك عزيزتي. أعرف أنك لم تكذبي عليّ».

ولكي يمسح نظرات الشك من عينيها أضاف: «لمَ لا يمكنني أن أستمتع بوقتي برفقة امرأة شابة؟ أنا في الأربعين من العمر لكن هذا لا يعني أنني أصبحت عجوزاً».

اتسعت عيناها للحظة ثم هزّت رأسها: «أظن أنك تجاملني سنيور وهذا لطف منك، لكن أتمنى ألا تفعل. فأنا أعرف حدودي أكثر من أي شخص آخر».

ضاقت عيناه وسأل: «ما هي حدودك؟»

علا الاحمرار وجنتيها وبوجهها الخلي من أيّ تبرّج وشعرها المتطاير بدت أشبه بفتاة مراهقة. وتعجب كاستيللي ثانية من أن تكون تس أكبر من أختها، فقد استنتج من كلام فيرديسي أن آشلي أكثر حنكة من تس وأكثر خبرة في الحياة.

أخذت تس تتحرّك باضطراب في مقعدها وقالت أخيراً وهي توجّه انتباهها

إلى المناظر في الخارج:

- هل هذا ديرٌ هناك؟

قرّر رايف أن يسمح لها بتغيير الموضوع فحوّل نظره عن الطريق أمامهما.

- أظن أنها كنيسة. ثمة القليل من الأديرة في هذه المنطقة إنما تجدين بعض الآثار إن كان الأمر يهمك، إلا أنني أخشى أن التفكير بالكهنة يجعلني أشعر بالحرج.

عبست تس وسألت ببراءة: «هل لأنك مطلق؟»

ابتسم رايف وألقى نظرة سريعة عليها وقد شعر بالتسلية: «لا، لا أظن أن بإمكاني أن ألومهم في هذه المسألة».

- لماذا إذن؟

- تلقيت دراستي لدى الآباء اليسوعيين وهم لا يتحلّون بالرحمة كما تعلمين.

صمت رايف قليلاً وهو يستعيد ذكرياته ثم تابع يقول: «مضى وقت طويل على ذلك لكنني لم أنسَ قط».

بدت تس مهتمة فسألت: «هل ذهبت إلى المدرسة في توسكانيا؟».

هزّ رايف رأسه: «لا، بل في روما».

ثم كشّر وتابع: «كانت أمنية والدتي الكبرى أن أصبح كاهناً».

التوت شفتاها قائلة: «كاهناً؟»

- أمرٌ مستحيل أليس كذلك؟ كيف يمكن لرجل متزوج ومطلّق أن يستحق هذا المنصب؟ هل هذا ما تفكرين فيه؟

بسطت يديها وردّت: «لا، لكنني فوجئت فقط. لم يسبق لي أن التقيت رجلاً كان يعدّ ليصبح كاهناً».

أكد لها بجفاء: «ما كنت سأصبح كاهناً يوماً، فذلك حلم والدتي وليس حلمي. لحسن الحظ أن والدي يتمتع بقدرة كبيرة على الإقناع. كنت ابنه الوحيد

www.elromancia.com

ومن البديهي أن أرث حقول العنب وآخذ مكانه، لا سيما حين بدأت صحّته تسوء».

- وهل لا يزال والدك حياً؟

قال بأسف: «لا، توفي منذ عشرين عاماً».

- لا بد أنه توفي وهو لا يزال شاباً.

أكّد رايف كلامها بجفاء: «توفي في الخمسين من عمره، لكنه كان يدخن كثيراً يا عزيزتي».

هزّت رأسها وقالت: «والدي متوفي أيضاً، مات إثر ذبحة قلبية السنة الماضية».

بكلامها هذا أكّدت له ما كان يشكّ فيه. صمت رايف للحظة ثم سألها: «هل تفتقدينه؟»

اعترفت بصدق: «ليس بقدر ما كنت لأفتقده لو عشنا معاً. أظن أنني أخبرتك أن خالتي هي التي ربتني بعد وفاة أمي. وبعد إنهاء دراستي الجامعية بدأت بالتعليم، فانتقلت إلى منطقة أخرى. اعتدنا أنا ووالدي أن نلتقي من حين إلى آخر، لكن الأمر يختلف تماماً عن العيش معاً».

قال رايف بجفاء: «لدي شعور بأن زوجة والدك لعبت دوراً كبيراً في ذلك. أظن أنها تشبه ابنتها أكثر مما تعتقدين».

راحت تس تدافع عن عائلتها بقوة وكان عليه أن يحترم ذلك فيها: «لا بأس بأندريا، كل ما في الأمر أنها أرادت طفلاً واحداً، ولم ترغب يوماً بالاهتمام بطفلتين».

وبينما راحت تس تتفحص حشرة صغيرة غطّت على ساقها علّق رايف: «لكن لا بد أنها علمت أن لوالدك طفلة قبل أن تتزوج منه».

قالت متعمدة تغيير الموضوع: «هل هذه بعوضة؟»

وقبل أن يفكر رايف في المسألة مدّ يده ونفض الحشرة عن ساقها. ولم يدرك

ما فعله إلاّ حين أرجع يده بأمان إلى المقود فيما أصابعه لا تزال تشعر بنعومة بشرتها.

ذكّر نفسه بأنها ليست ابنته أو قريبته فهي مجرد شخص غريب. إلا أنه وجد نفسه يعاملها كصديقة.

أدارت تس وجهها إلى الجهة الأخرى وكأنها أدركت أنه يشعر بالذنب لانجذابه إليها. وتململت حتى التصقت الباب فيما أبقت نظرها نحو الخارج.

بعدئذ، حلّ الصمت بينهما وقد انشغل كلاً منهما بأفكاره الخاصة، وبالاهتمام بالبساتين المحيطة بهما.

كان رايف متأكداً مما يشعر به. إلا أنه فكّر بانفعال أنه ربما يتخيّل ذلك فقط، فقد أصبح كبيراً على هذه الألاعيب الصبيانية.

لكن، ما من شيء صبياني في ما يشعر به. وأدرك أن عليه كسر جو التوتر الذي يسود بينهما. شعر بالارتياح حين رأى مجموعة من الڤيللات على الخط الساحلي، فقال:

- هذه ڤيالي، وقد أصبحت قسماً من ڤياريغيو اليوم. إنها ذات طابع خاص. ورغم أنها لا تتميز بفن العمارة الحديث التي تشتهر به ڤياريغيو، إلا أن الكثيرين يفضلونها كمنتجع سياحي.

سألته: «هنا تعيش ابنتك؟».

فأجابها مؤكداً: «الفندق الذي تملكه هي وزوجها يقع خارج ڤيالي على الطريق المؤدي إلى ڤياريغيو. لا يتردد الكثير من النزلاء عليهم في مثل هذا الوقت من السنة، لذا سيكون لدى ماريا الوقت الكافي للتحدث إلينا».

بدت ڤيللا بوسيني أنيقة ومميزة، وهي تتألق تحت نور شمس الظهيرة.

حدّق رايف إلى وجه تس فلاحظ أنها أكثر جاذبية ممّا تظن، وشعر أنه لم يعد يود رؤية ابنته بل يود القيام بأشياء أكثر بهجة. سألته تس وهو يتوجّه نحو الداخل: «هل هذا هو؟»

www.elromancia.com

زفر رايف بقوله وهو يرد عليها بسؤال آخر: «هل أعجبك؟»

أبطأ السرعة ليتجنب مجموعة السياح المتوجّهين إلى البلدة وتابع قائلاً: «عائلة كارلو تدير مشاريع ترفيهية كبيرة. وهذا أوّل مشروع يقوم كارلو بإدارته بمفرده».

- إنه أكبر بكثير مما توقعت. ظننت أن النزل مكان صغير للنوم وتناول الفطور فقط.

منحها رايف ابتسامة صغيرة وقال: «فكّرت أنه نزل صغير وليس فندقاً تس».

أصبح استخدامه لاسمها أسهل بكثير الآن وتابع يقول: «ڤيللا بوسيني من الفنادق المتوسطة الضخامة».

تميّزت الڤيللا بتأثير ساحر بسبب موقعها الفريد بالقرب من الخليج. فقالت تس بلطف: «يبدو المكان مثيراً للإعجاب حقاً».

لاحظ رايف كيف التفتت بقلق إلى ثيابها فطمأنها: «إنه فندق لقضاء العطلة وأنت تبدين تماماً كأحد ضيوفه».

أطفأ محرك سيارته وفكّ حزام الأمان. لقد وصلا... كان رايف يشعر ببعض القلق، فهي المرة الأولى التي يأتي برفقة امرأة إلى منزل ابنته. ورغم محاولته إقناع نفسه بأن دوافعه سليمة إلاّ أن ذلك لم يغيّر من الواقع شيئاً، إذ لم يكن ثمة داعٍ لإحضار تس معه.

فكّت تس أيضاً حزام الأمان، وقبل أن يتمكن من الوصول ليفتح لها الباب، فتحت الباب بنفسها وخرجت من السيارة. بدت تس شابة وجميلة وقد تألق شعرها وتوردّت وجنتاها بسبب أشعة الشمس. ولم يستبعد رايف أن ترتاب ماريا بشأن رفيقته.

قبل أن يتمكن من التفكير بردّ يدافع به عن نفسه، سمع صوت ابنته تناديه. كانت آتية من ناحية الحديقة، وهي تحمل بيدها سلّة من الأزهار البيضاء والصفراء.

بدا شعر ماريا كشعر والدها لكنه أطول بالتأكيد. أما القميص البسيط الذي ارتدته فمن قماش الأوركنزا الأبيض ما أبرز بوضوح سمرة ذراعيها الدافئة.

بدا التناقض واضحاً بينها وبين تس. ومع اقتراب ماريا رأى رايف كيف تقوّس حاجباها بتهذيب وهي تتحقق من الزائرة. وفهم من تعابير وجهها أنها انزعجت لأنه أحضر معه امرأة غريبة من دون إعطائها إنذاراً مسبقاً.

رحبت ماريا بوالدها بحرارة قائلة بالإيطالية: «مرحباً بابا».

خطا خطوتين نحوها فيما تابعت تقول: «لمَ لم تخبرني أنك قادم؟»

قاطعها بنعومة قائلاً بالإيطالية أيضاً: «أرجوك ماريا تكلّمي الإنكليزية».

واستدار يدعو تس للانضمام إليهما، فالتقت نظراتهما معاً ثم استدار مجدداً إلى ابنته قائلاً: «تس، هذه ابنتي ماريا، ماريا إنها تس دانييل، لعلك تتذكرين أختها التي تدير معرض ماديسي في سان ميشيل».

ظن للحظات أن ماريا شعرت بالذنب. من الواضح أنها أدركت من هي تس لكنها حاولت إخفاء رد فعلها عنه. تكلّمت بالإيطالية مجدداً وقد نسيت بسبب ارتباكها أنه طلب منها التحدث بالإنكليزية:

- بونجورنو سنيورينا.

ثم راحت تعتذر: «آسفة بابا، لقد نسيت».

وتابعت بعدئذ باللغة الإنكليزية: «كيف حالك آنسة دانييل؟ هل تستمتعين بعطلتك؟»

أكدّ لها رايف قبل أن تشرح تس الموقف: «تس ليست في عطلة هنا».

آخر ما أراده هو أن تعلمها تس بسبب قدومهما. فتابع: «إنها تدير المعرض في غياب أختها».

ثم وضع يداً حذرة على كتف تس وأردف: «آمل ألا تمانعي عزيزتي فقد دعوتها لمرافقتي كي تتعرف على أماكن أخرى في المنطقة».

زمت ماريا شفتيها وقالت: «كان عليك إعلامي بمجيئكما بابا».

ونظرت إلى تس بقلق ثم مدت يدها لتسلّم عليها ببرود: «هل هذه أوّل زيارة لك إلى إيطاليا آنسة دانييل؟»

لم تكن تس عديمة الملاحظة وعلم رايف أنها تلومه من دون شكّ على إحضارها إلى هنا.

- نعم، هذه أوّل زيارة، أرجوك ناديني تس.

ألقت تس نظرة سريعة على ماريا ثم تابعت وهي تنظر إلى رايف الذي بقيت يده على كتفها:

- إنها منطقة جميلة. لم يصف لي والدك مدى جمالها قبل قدومنا.

لانت ماريا قليلاً لكنها بقيت تراقبهما عن كثب ما جعل رايف مضطراً لإبعاد يده عن كتفها. وافقت ماريا على ما قالته تس وهي تشعر بالرضى: «نعم، إنها جميلة».

ثم التفتت إلى والدها مجدداً: «هل ستبقى حتى الغداء بابا، أم أنها زيارة قصيرة فقط؟»

هزّ رايف كتفيه وقال: «نحن لسنا على عجلة من أمرنا عزيزتي لكننا نشعر بالعطش وبعض العصير يناسبنا الآن. يمكننا لاحقاً أن نقرر بشأن الغداء، أليس كذلك؟»

بدا وكأن ماريا تفضّل أن تسمع منه بعض الشرح عن سبب قدومهما لكن الكياسة تفرض عليها لعب دور المضيفة الكريمة، فظهرت ابتسامة على وجهها وهي تقول:

- بالتأكيد بابا. أرجوكما تفضلا برفقتي، يمكننا شرب العصير في الفناء.

٦ - غير مرحب بها

أرشدتهما ماريا عبر ممر تحفّ به أشجار السنديان والسرو. حين وصلا إلى شرفة مشمسة معزولة، رأت تس كثيرين يتنزهون على الشاطىء المحاذي للفندق.

لم تبالغ حين قالت لماريا إن المكان جميل، فقرية ڤيالي تقع عند رأس يمتد داخل البحر، أما التلال التي تعلو خلفها فتغطيها أشجار الصنوبر.

كانت الشرفة التي قادتهما إليها ماريا معزولة عن الأماكن العامة بسياج مرتفع تغطيه الورود والعرائش. عندما وصلوا إلى الطاولة ظهرت فتاة في الثامنة عشرة من عمرها تقريباً ترتدي زي الخادمات لتسأل إن كان بإمكانها إحضار شيء لهم.

طلبت ماريا العصير وبعد أن أعطت سلة الزهور لتلك الفتاة دعت تس للجلوس. أظهرت ماريا الكثير من التهذيب واللباقة في تصرّفها مع تس، مع أنها لم تكن راضية عن مجيئها برفقة والدها إلى هنا.

خطر لتس أنها تبدو فعلاً متطفلة. لم يكن يجدر بها الموافقة على مرافقته، فهذه الرحلة ألقت الضوء على الهوّة الكبيرة بين نمط حياة رايف وابنه ماركو ونمط حياتها.

ربما هذا ما أراد إظهاره! فكّرت في ذلك وهي تضع مرفقيها على الطاولة لتسند ذقنها.

جلس رايف بجانبها بعد أن علق سترته على ظهر الكرسي وقام بطي كمي قميصه حتى الساعدين.

وضع ذراعيه السمراوين على الطاولة على بعد سنتيمترات قليلة من مرفقيها، فسارعت إلى سحبهما لتجلس بشكل مستقيم في كرسيها.

لم تنس لمسته الخفيفة في السيارة كما لم تنسَ شعورها حين وضع يده على كتفها منذ لحظات.

علمت أن التفكير في الموضوع سخيف لكنها شعرت بعلاقة خاصة تربطهما، حين أمسك بكتفها.

لعله فعل ذلك لئلا تفصح عن هدف زيارتهما، لكن ذلك لم يمنعها من الشعور بالقلق. هل لاحظت مايا ذلك؟ لقد رأت بالتأكيد والدها وهو يضع يده على كتفيها.

عادت الخادمة وهي تجرّ عربة، في طبقتها السفلى إبريق من عصير الليمون وآخر من الليموناضة وإبريق من الكريما الطازجة. كما يعلوها إبريق قهوة وبعض الفناجين المزخرفة مع صحونها.

شكرها كاستيللي، فعَلت وجهها ابتسامة وتوّردت وجنتاها من السعادة. فكرت تس بجفاء في أنه قادر على جعل أي امرأة تشعر بأهميتها وعليها أن تتذكر ذلك جيداً، فلا تظن أن اهتمامه بها يتعدى طبيعته مع النساء كلهن. مرّت لحظات في السيارة، تمكّنا خلالها من التكلم بسهولة، فأخبرها عن طفولته وشرحت هي له شعورها حين توفي والدها. كان الحديث معه ممتعاً فنسيت للحظات ما تفعله هناك وإلى أين هما متوجهان. لكن حين أصبحت الأسئلة شخصية جداً غيّرت الحديث وتلهّت بالحشرة التي حطّت على ساقها وقد أخطأت في ذلك.

وفجأة، أدركت كم هي ساذجة، إذ أنّ نظرته إليها تغيرت منذ تلك اللحظة، والتوت شفتاه بإحساس واضح.

بعد لحظات، تأكدت من أنها تتخيل ذلك فهو لم ينظر إليها بذلك الشكل مجدداً، بل أمضى بقية الرحلة صامتاً. أما هي فكل ما فعلته هو الالتصاق بالباب وكأن وجود رجل يحدّق إليها، يخيفها حتى الموت.

من الغباء أن تفكر في هذه الأمور الآن، فيما ابنته تراقبها بارتياب. يا

الله... يبدو أن الأمر يصبح أكثر تعقيداً.

بعد انصراف الخادمة سألت ماريا: «إذن، بابا.. كيف تعرّفت إلى الآنسة.. تس».

صحح لها كاستيللي باقتضاب: «تيريسا».

لاحظت تس النظرة التحذيرية التي رمقها بها ما جعل وجه ماريا يحمّر ثم تابع يقول:

- التقينا في معرض ماديسي، كنت أبحث عن أختها ولم تكن هناك.

- لا؟

تساءلت تس إن كان ما تسمعه في صوت الفتاة هو نبرة شك.

- لم أكن أعلم أنك تهتم بالمعارض بابا.

ظهرت الحدة في صوت كاستيللي وهو يشير إلى الموضوع: «أنا لست كذلك على عكس شقيقك، أليس كذلك؟»

بدت الدهشة على وجه ماريا ورددت: «ماركو؟»

تساءلت تس أن كانت تتخيّل الذعر في صوت الفتاة.

- شقيقي؟ ولكن لماذا؟

بدا الاستهجان واضحاً في صوت كاستيللي وهو يقول: «ألا تعرفين عزيزتي؟ لا تكذبي عليّ ماريا. تعلمين بشأن اهتمام ماركو المفاجىء بالرسم، فقد سمعته يناقش طموحاته الفنية معك».

رفعت ماريا كتفيها محاولة الدفاع عن نفسها: «نعم ولكن.. لما قد أربط بين اهتمامه بالرسم وبين معرض ماديسي؟»

ضاقت عينا كاستيللي: «أنت من سيخبرني».

نظرت ماريا بحقد إلى تس وبدا امتعاضها من وجودها خلال هذا النقاش المربك واضحاً. أما تس فلم تكن سعيدة بهذا الوضع تماماً كماريا، ولو أمكنها لتركت المكان في الحال. قالت ماريا أخيراً: «لا أعلم عمّا تتحدث بابا».

www.elromancia.com

بيدها المرتجفة أخذت الإبريق لتسكب العصير في كوب مليء بالثلج فأوقعت بعض العصير على الطاولة. لكنها تمكنت أخيراً من إخماد غضبها فتناولت أحد المناديل ونظّفت العصير عن الطاولة ثم التفتت إلى تس تسألها: «تودّين العصير أم القهوة؟»

لم تشأ تس المجازفة بأن تسكب ماريا القهوة عليها بقصد أو من دون قصد فقالت: «العصير، شكراً».

- بابا؟

تململ كاستيللي فأجفلت تس حين اصطدمت ساقه بساقها. ورغم قرارها بألاّ تتورط معه، لم تستطع منع نفسها من التجاوب مع هذه اللمسة. وشعرت بحرارة جسده تنتقل إليها بقوة.

شكّت في أن يكون قد لاحظ ما حدث، إذ لم يكن ذلك سوى احتكاك سريع بين ساقيهما.

قال بعد لحظة وهو يشير برأسه إلى إبريق العصير: «سآخذ كوباً من العصير أيضاً. لكنك لم تلهيني عن الموضوع ماريا. فماركو مفقود وإن عرفت أنك تعلمين أين هو وتخفين ذلك عني، فلن أسامحك أبداً».

شهقت ماريا بلهفة: «ماذا تعني بأن ماركو مفقود؟ هل هرب؟».

- لا تحاولي التمثيل، ماريا، أظن أنك تعرفين جيداً أين هو. ولكن، إن ساورك أي شك فدعيني أخبرك عزيزتي أن أخاك هرب مع آشلي دانييل أخت تس.

لم تعد قادرة على تفسير ردّ فعل ماريا، فقد بدت مصدومة بالتأكيد. لكن هل صدمتها ناتجة عن تصرّف أخيها أم عن ضغط والدها عليها؟.

وأخيراً، قالت بصوت غير مستقر:

- لا يمكن ذلك.. هل تعني أن ماركو مهتم بتلك المرأة التي تدير معرض ماديسي؟ هذا مضحك.. فهي أكبر منه سناً بكثير.

قرّرت تس ألاّ تهاجم ماريا، فهي محقة في ما تقوله. فآشلي أكبر من ماركو بكثير فعلاً. لكن الازدراء الذي بدا في صوت ماريا جعلها تشعر وكأنها عجوز. لكن ما المشكلة؟ لما تهتم برأي ماريا؟

- أنت تعلمين أنه كان يقابلها، أليس كذلك؟

بدا كاستيللي قاسياً، فأجفلت ماريا واعترفت: «كنت أعلم أنه يزور المعرض، ولكنه يزور العديد من المعارض. أخبرني أنه مهتم بفن الرسم، ولكن كيف لي أن أعلم أن زيارته إلى المعرض الذي تديره تلك المرأة لهدف آخر؟».

قال والدها بشراسة: «ربما لأنه أخبرك؟ اسمعي ماريا، أنا لست مغفلاً. ماركو يخبرك كل شيء وإن كان مهتماً بتلك المرأة فلن يخفي ذلك عنك».

بدت عينا ماريا دامعتين الآن: «عليك أن تصدقني بابا، هل تظن أنني قد أشجعه على تصرّف مماثل؟»

- أنا لا أقول إنك شجعته، فأنت أكثر وعياً من أن تفعلي ذلك. لكني أعتقد أنه ذكر لك اهتمامه بتلك المرأة، ربما... كيف يقولونها بالإنكليزية؟ تباهى بذلك؟ هل أخبرك عن نوع العلاقة بينهما؟

شتمت ماريا وقالت: «لا أصدق ذلك».

- ما الذي تصدّقينه؟ أن ماركو متورّط مع امرأة أكبر منه سناً؟ أم أنه أخفى مشاعره الحقيقية عنك؟

علّقت ماريا: «إنه قد يكون بهذا.. بهذا الغباء».

ونظرت إلى تس وكأنها تلومها على هذا الوضع، ثم أضافت: «حسناً، بابا، علمت أنه يقدّر تلك المرأة لكنها راشدة واعتقدت أنها ستملك الإدراك الكافي لئلا تأخذ تصرّفاته على محمل الجد».

بدا الذهول واضحاً على كاستيللي وتململت تس غير واثقة من ردّ فعله بينما ألقى عليها نظرات تدل على نفاد صبره: «كنت أعلم ذلك. وأخيراً عرفنا

الحقيقة. إذاً، كنت تعلمين بتلك العلاقة بين ماركو وآشلي ولم تخبريني؟»

كبتت ماريا تنهيدة وقالت: «ما من علاقة بينهما، إنه افتتان سخيف وإن كان ماركو قد رحل فهذا لا يعني أنه أخذ تلك المرأة معه».

هز كاستيللي رأسه وقال: «نعم إنهما ذهبا معاً ماريا.. استقلا الطائرة إلى ميلانو منذ أيام عدة».

- استقلا الطائرة!

وأردف: «ولكن حين وصلت الطائرة إلى ميلانو لم يكونا على متنها، لعلهما نزلا في جنوى وما زلت آمل أن تخبرينا السبب».

فتحت ماريا فمها وسألت: «أنا بابا؟».

هز كاستيللي رأسه وقال: «إذا كنت تملكين أي معلومات فأنصحك بإخباري بها الآن».

أخذت ماريا أحد المناديل عن الطاولة وقد انهارت كلياً، فسالت دموعها بغزارة وقطبت وجنتيها وصرخت:

- قلت لك بابا، هذا الموضوع يحزنني مثلك تماماً!

- بكل صدق؟

بدا كاستيللي غير ودود مع ابنته وتمنّت تس مجدداً لو لم تأتِ برفقتها. حسناً، لقد أرادت أن تعرف مكان آشلي ولكن المسألة ليست مسألة موتٍ أو حياة كما يبدو لعائلة كاستيللي.

شعرت باضطراب كاستيللي الذي يجلس إلى جانبها كما شعرت أن الهواء لم يعد يكفيها لتتنفس فحملت كوبها وانسحبت بتهذيب عن الطاولة. انتقلت لتقف عند الحافة الصغيرة التي تحيط بالشرفة، وهي تتمنى لو تتمكّن من الشعور بالارتياح كما كانت تحلم قبل أن تغادر إنكلترا.

سمعت تس خطوات تقترب فالتفتت في الوقت المناسب لترى رجلاً يخرج من المبنى خلفهم.

اتجه الرجل نحو ماريا مباشرة وضمها بين ذراعيه ثم وجّه نظرات الاتهام إلى والدها وهو يقول بالإيطالية: «حبيبتي لما تبكين؟ ما الخطب عزيزتي؟»

ردّ كاستيللي بالإنكليزية: «ما من خطب، كارلو».

ثم وقف بنفاد صبر يواجه ذلك الرجل: «إنها منزعجة لأن أخاها اختفى وكان بإمكانها إيقافه».

كارلو! تذكّرت تس الاسم، إنه زوج ماريا. عبس الرجل عند سماع كلام والد زوجته ثم عاد لينظر باهتمام إلى وجه زوجته المبلل بالدموع.

- هل هذا صحيح ماريا؟

هزّت ماريا رأسها بحزن، ولكن قبل أن تتمكن من الدفاع عن نفسها قال والدها مشيراً إلى تس:

- دعني أعرّفك إلى رفيقتي كارلو، معرفتها بلغتنا الإيطالية محدودة لذا نحن نتكلم بالإنكليزية. تس إنه صهري، كارلو شولتي.. كارلو، إنها تس دانييل، أخت المرأة التي تورّط معها ماركو.

بقيت تس مكانها، ومنحت الشاب ابتسامة ترحيب. راودها شعور بأن الفضول تملّك كارلو حول سبب قدومها تماماً كما شعرت زوجته.

قالت ماريا تلفت انتباه زوجها: «اختفى ماركو وبابا يقول إنه رحل مع المرأة التي تدير المعرض في سان ميشيل. يعتقد أن كان عليّ إخباره أنهما صديقان لكنني لم أتصوّر أن ماركو قد يُقدم على عمل مماثل».

ساعدها كارلو على الجلوس في كرسيّها والتفت إلى كاستيللي قائلاً بالإنكليزية هذه المرة: «ماذا تفعل تلك المرأة هنا؟ ألا تعرف إلى أين رحلا؟»

أظهر كاستيللي امتعاضه وكأنه يرفض التلميح إلى أنّ تس شريكة في الجريمة: «من الواضح أنها لا تعرف. وأنا من قام بدعوة تس لترافقني، هل لديك مشكلة في ذلك كارلو؟ أم أن هذه هي طريقتك في الترحيب بزوار غير متوقعين؟»

جاء دور كارلو ليشعر بالإحراج فقال مختنقاً: «عفواً سنيورينا، لم أقصد أن

أبدو فظاً».

تمنت تس لو بإمكانها المغادرة على الفور وتمتمت: «لا داعي لذلك، أنا آسفة لأننا كدّرنا زوجتك. نحن نحاول فقط إيجاد أختي وماركو».

علّق كاستيللي بجفاء: «لقد أوضحت الوضع بصورة جميلة».

والتقت عيناه بعينيها ما ذكّرها مجدداً، كم يبدو كاستيللي جذاباً.

تفجّرت منه طاقة وقوة لم تتمكن من مقاومتهما، فزاد ذلك من اضطرابها. بدا واضحاً أن الجميع ينتظر جواباً منها فبلّلت شفتيها وقالت أخيراً:

- لا مشكلة. لقد.. حسناً عليّ العودة إلى المعرض.

توقعت نقاشاً بهذا الخصوص وتمنت ذلك، إذ أدركت أنها لا تتوق للعودة برفقته إلى سان ميشيل، كان بإمكانها تحمّل كاستيللي الإجتماعي الودود ولكن كاستيللي العديم الصبر والغاضب.. فهذا أمرٌ آخر.

قرّر كاستيللي الموافقة: «أعتقد أنك محقة، عزيزتي».

وتساءلت إن كان قد تعمّد استخدام كلمة عزيزتي، لا بدّ أنه يعلم بأن ابنته ستغتاظ لهذه الإلفة بينهما.

رشف ما تبقّى من العصير وأعاده بلا مبالاة إلى الطاولة ثم أردف:

- كنا نتمنى مشاركتكما الغداء ماريا لكن تس محقّة في أنه علينا العودة إلى سان ميشيل.

- ولكن بابا...

قال بتهذيب إنما بحزم أيضاً: «ليس الآن ماريا. إن فكرت بشيء ما فيمكنك الاتصال بي».

قال كارلو: «أعلمنا إن عرفت أي معلومات جديدة».

أجابه كاستيللي مكشراً: «سأطلب منكما الشيء نفسه. فقد تتذكر ماريا تفصيلاً نسيته الآن».

وقف كارلو وماريا لتوديعهما، وجففت ماريا دموعها فلم تعد تبدو حزينة

بل مستاءة. نظرت بعبوس إلى كاستيللي وهو يفتح باب السيارة فأدركت تس بانفعال كم بدت استفزازية لتلك المرأة الشابة بمظهرها هذا.

تمنّت فقط ألاّ تظن ماريا أنها تخطط للتقرّب من والدها، فهي تعي أنه بعيد المنال حتى لو شعرت بانجذاب نحوه.

في طريق العودة، بدا كاستيللي مستغرقاً في أفكاره. وشعرت تس بالسعادة لأنها تمكنت أخيراً من أن تستريح بعد ساعة من التوتر. سألها كاستيللي فجأة: «هل تظنين أنني كنت قاسياً؟»

تعجبت تس كيف تمكن من معرفة ما تفكر فيه بالضبط وتابع بسخرية: «أرى أنك ارتبكت. لم أكن لطيفاً أليس كذلك؟»

ترددت تس للحظة ثم قالت بصوت خالٍ من التعابير: «لا».

لا شأن لتس في علاقته بإبنته، لكنه سألها: «كيف كنت لتتصرّفين لو كنتِ مكاني؟»

تحركت يداه فوق المقود وبدت أصابعه الطويلة أكثر رجولية.

نظر إليها مجدداً، وأدركت أنه ينتظر جوابها فتمتمت: «لا أعلم، لا علاقة لي بهذا الموضوع».

ثم حاولت أن تكون إيجابية لتتجنب جواباً مزعجاً منه فقالت: «أنا.. أظن أنها كانت مصدومة بما حدث».

ردّ عليها بجفاء: «أنا متأكّد أيضاً من أنّ ماريا تشعر بالغيرة من أختك».

ورمقتها عيناه بنظرة تقويمية ثم تابع: «إنها ترفض أن تعترف بأن لأخيها حاجات».

شعرت تس بحاجة لتغيير الحديث، إذ لا يمكنها مناقشة حاجات ابنه العاطفية.

قالت وهي تحرّك يديها بلطف فوق سروالها القصير: «إن الـ... الفندق جميل جداً».

www.elromancia.com

علمت أن الكلمة التي استخدمتها لوصف الفندق بدت تافهة جداً فأضافت: «يبدو العيش في موقع مماثل رائعاً».

قال: «أنا سعيد لأنه أعجبك. من المؤسف أنك لم تحظي بفرصة لرؤية المزيد».

تمتمت تس من دون تفكير: «لا أعتقد أن ابنتك توافقك الرأي».

رفع كاستيللي حاجبيه حين سمع كلامها فأضافت بسرعة:

- أقصد أنها لم تكن في مزاج جيد لاستقبال الزائرين، فهي لا تزال عروساً شابة جداً.

قال لها باتزان: «إنها في التاسعة عشرة من عمرها. تعتقدين أن ابنتي لم تكن راضية عن مجيئك معي».

تحرّك في مقعده وتابع: «ولكن لدي حياتي الخاصة تماماً مثل ابني».

لم تجد تس ما تقوله، فأدارت رأسها وأخذت تحدّق إلى حقول الأزهار الواسعة.

حاولت أن تكون موضوعية، لكن كيف يفترض بها التعامل معه؟ خبرتها بالحياة لم تهيئها للقاء شخص يتمتع بمثل هذه الجاذبية.

قالت برباطة جأش مذهلة: «أتوقع وجود العديد من النساء في حياتك سنيور. فشخص مثل خبرتك لا بد أن لديه الكثير من الصديقات».

- هل تعتقدين ذلك؟ وناديني رايف وليس سنيور.

صمت قليلاً ثم تابع: «لقد فاجأتني عزيزتي. لست واثقاً مما إذا كان ذلك إطراء منك أم لا».

تناديه رايف! ابتلعت تس ريقها، وقالت متجنبة مناداته باسمه: «أنا أقول ما يبدو واضحاً لي، ولا أظن أن اعتراض ماريا على وجودي اليوم سببه أنها لم ترَك مع امرأة أخرى من قبل، أليس كذلك؟»

- لا.

عليها أن تنهي الموضوع، فأخذت نفساً عميقاً وقالت: «الأمر هو أنني مختلفة عن الأخريات وقد غضبت ماريا.. عندما علمت من أكون».

قال ببرودة: «أتعنين لأنك أخت آشلي؟»

تنهدت تس وقالت: «هذا أقل ما في الأمر وأنت تعلم ذلك».

صمتت قليلاً ثم تابعت: «أنا بكل تأكيد لا أتماشى مع صورة المرأة التي تفضلها أنت».

ألقى نظرة عاجلة عليها، وسألها وهو لا ينوي أن يسهل الأمر عليها أبداً: «كيف يمكنك أن تعرفي من هي المرأة المناسبة لي؟ هيا تس لا يمكنك قول أمرٍ من دون توضيحه. لذا أخبريني، أي نوع من النساء تظنين أنني أفضل؟»

أحنت رأسها بارتباك. رفعت يدها لتفرك رقبتها وغمغمت: «امرأة محنكة وأكثر جمالاً».

ثم قالت وكأن الكلمات تخرج من فمها بصعوبة: «كيف لي أن أعرف؟ أتوقع ألاّ ترتدي رفيقاتك سراويل قصيرة».

أبطأ السيارة، وللحظات ظنت أنه سيتوقف ليتمكن من مناقشتها أكثر. لكن، بدلاً من ذلك، دخل أرضاً مرصوفة بالحصى تطل على الشاطىء مباشرة حيث رأت تس مقطورة سيارة تحوي مطعماً يبيع وجبات سريعة وسندويشات. وبعد إطفاء المحرّك قال لها:

- أظن أنّ وقت الغداء قد حان، أليس كذلك؟

٧ - عناق وفراق

رأى رايف الدهشة تعلو وجهها بسبب الموقع الذي اختاره.

فكّر أن رغبته في أن يمرر يده بين خصلات شعرها ليست أمراً جيداً. نظرت تس إليه من زاوية عينيها الخضراوين فأدرك أنها فهمت نواياه بشكلٍ خاطىء إذ سألته بحزم:

- هل تقوم عادة بشراء السندويشات الجاهزة سنيور أم أنّ خيارك يتوقّف على مكانة رفيقتك الاجتماعية؟

عبس وسألها ببراءة: «هل تعترضين لأنني لم آخذك إلى مطعم فاخر؟»

علا الاحمرار وجهها وعارضته بحدة:

- أنت تعلم ما أعني. ولكن إن كنت توقفت من أجلي فأرجوك لا تفعل. قلّما أتناول طعام الغداء ويمكنني الانتظار حتى العودة إلى سان ميشيل.

أجابها وهو يفتح الباب وينزل من السيارة: «حسناً.. أنا لا يمكنني ذلك. وأعتقد أنّ هذه الأكواخ تقدّم الكثير من الطعام الشهي».

فتحت باب السيارة ونزلت لتنضم إليه: «لا يمكنني تخيّل منظرك وأنت تأكل الهامبرغر سنيور».

شعرت بحرارة شمس الظهيرة على وجهها وكتفيها وقالت: «يا إلهي، الجو حار جداً».

راقب رايف ذراعيها باهتمام، وقال وهو يحاول مقاومة رغبته في تمرير أصابعه على بشرتها الناعمة:

- ربما يجدر بك البقاء في السيارة فالجو بارد فيها.

قالت بخفة: «ماذا؟ وأفوّت فرصة رؤية أنواع الطعام المتعددة؟».

زاد خفقان قلبه بسبب حس الفكاهة الذي أظهرته فجأة.

- حسناً.. دعينا نشتري طعاماً وشراباً ونحمله إلى مكان مسلٍ أكثر.

حبست تس أنفاسها وسألته: «نقدر أن ننزل إلى الشاطىء؟ أليس المكان منحدراً جداً؟»

مازحها من دون رحمة: «لا تقولي لي إنك تخافين من المرتفعات، عزيزتي.. أين حسّ المغامرة لديك؟»

هزّت تس رأسها وقالت من دون فرح: «لا أظنني أملك ذلك الحس سنيور. لكن إن كان بإمكانك فعل ذلك...»

قال بسخرية: «هل تقصدين أن رجلاً عجوزاً مثلي لا يمكنه ذلك؟»

نظرت تس إليه بنفاد صبر واحتجت: «أنت لست عجوزاً سنيور».

تنهد لأنها لا تزال تستخدم تلك الطريقة الرسمية في مناداته، وسألها وهو يركّز نظره على وجهها المتورّد:

- لما تصرين على مناداتي سنيور؟ أنت تعرفين اسمي تس، أليس كذلك؟ استخدميه إذن.

اعترضت: «لا.. لا أعتقد أنه يجدر بي مناداتك رايف».

وتولّد لديه انطباع بأنها تجد صعوبة في إبعاد نظرها عنه.

- لما لا؟

لم يستطع منع نفسه من الإصرار على الموضوع لكنها اختارت قطع الحديث فغمغمت بضعف: «لأنه.. هكذا فقط...».

ثم أضاف لتغيير الموضوع: «أليس علينا اختيار السندويشات؟ سيظن البائع أننا توقفنا لرؤية المنظر الطبيعي فقط».

تمتم رايف قبل أن يتمكن من منع نفسه: «يبدو جيداً لي».

فألقت نظرة دهشة عليه قبل أن تتحرّك نحو شاحنة الطعام، وارتاح رايف لأنهما وجدا بيتزا وفطائر بالجبن بدلاً من السندويشات العادية.

بدا واضحاً أن تس محتارة لا تعرف أي نوع من الطعام تختار، لذا اتخذ القرار بنفسه فطلب البيتزا والسلطة والتيراميسو من أجل التحلية والقهوة المرّة. نظرت تس إليه بشك وهو يحمل الطلبات إلى السيارة، ثم سألته: «كيف ستتمكن من نقل هذه الأغراض كلها؟».

فوضع الأغراض في السيارة وقال: «سترين».

وابتسم حين خطر في باله ما ستفكّر فيه والدته إذا علمت أنه يضع هذه الأشياء في سيارة الفيراري. لم تكن تس مخطئة تماماً فهو ليس معتاداً على أكل الطعام في الشوارع لكن ذلك لا يعني بأنه لن يستمتع بذلك اليوم.

بدا العبوس على وجه تس فاتجه نحو بابها ودفعها قائلاً: «اصعدي أرجوك...»

ترددت تس ثم قالت: «ظننتك قلت...»

- اصعدي وحسب!

ورغم نظرات الارتياب الواضحة في عينيها إلاّ أنها بقيت مهذبة ورضخت له. راقبها وهي تصعد إلى السيارة وهو يؤكد لنفسه أنه ينتظر فقط ليغلق الباب، لكنه كان يعلم أنه في داخله يملك أسباباً شخصية أخرى... إنه يستمتع بمراقبتها، وبإرباكها. ورغم أنه سيشعر بالندم على تصرّفاته غداً إلا أنه ينوي أن يعيش كل لحظة جميلة من يومه هذا.

بعد لحظات صعد بجانبها فداعبت أنفه رائحة عطرها النسائي. إنه عطر مشوّش ومغر بكل تأكيد، وقد أثاره للغاية.

حاول كبح نفسه وإبعاد فكرة انجذابه إليها.

ستهرب على الأرجح بعيداً إن تصرّف على هذا النحو. بالكاد يعرفان بعضهما، لذا... لماذا يشعر وكأنه يعرفها منذ زمن بعيد جداً؟

ابتسم لها ابتسامة صغيرة وأدار محرّك السيارة ثم خرج من ذلك المكان، لكنه لم يبتعد كثيراً. على بعد أمتارٍ قليلة، تمتد طريق خطيرة مليئة بالعلّيق وشجر

الصنوبر البري، طريق يصعب أن يلاحظها أي شخص إذا كان لا يعرف بوجودها مسبقاً.

أدرك أن تس التفتت لتحدّق إليه وعرف ما تفكر فيه قبل أن تتكلم.

- لم تكن تنوي نزول هذا المنحدر الشاهق، أليس كذلك؟

بدا صوتها لطيفاً أكثر منه اتهامياً. وعندما اهتزت السيارة عند منعطف حاد تمسكت تس بمقعدها وقالت: «هل سيوصلنا هذا الطريق إلى مكان ما أم أننا سنُحتجز في وسطه؟»

- اهدئي عزيزتي.. أنا أعرف ما أقوم به.

هل يعرف حقاً؟ تساءل رايف وهو فكّر بذلك الانجذاب الغريب بينهما.

غمغمت وكأنها تكلّم نفسها: «آمل ذلك».

سمعها ووبّخ نفسه لأنه يثير التوتر بينهما. كان ينوي جعل هذه الرحلة فترة راحة وصفاء قبل العودة إلى سان ميشيل. لكن بدا أنه يميل إلى خلق المشاكل التي قد تكون أصعب من افتتان ماركو الصبياني بأختها.

ضاقت الطريق حين أصبحا في نهاية المنحدر، وأجفل رايف حين أخذت النباتات البرية تخدش جوانب السيارة. فكّر في أنه أخطأ في أمور عدة اليوم، لكن ذلك لم يُمكّنه من السيطرة على رغبته في تمضية وقتٍ أطول برفقة تس.

وكما كان يأمل، وجد مساحة قاحلة أمام المياة الضحلة، مساحة تكفي ليدير مقدّمة السيارة نحو طريق العودة. شعر بالرضى للعزلة التي أصبحا فيها وأحس بالارتياح لأنه تمكن من تذكر هذا المكان ولم يخطىء. لا يزال المكان جميلاً كما يذكره، فالشاطىء مطوّق من الجهتين بالصخور، والرمال تمتد خالية من أي لمسة بشرية. وخلف بريق البحر بدت السماء زرقاء صافية خالية من الغيوم.

فتحت تس الباب حالما أوقف السيارة، وخرجت لتمشي نحو طرف الشاطىء ثم رفعت يديها فوق رأسها لتحميه من أشعة الشمس. تساءل بما

www.elromancia.com

تفكّر وهي تحدّق إلى البحر، وتمنى ألاّ تكون نادمة على مجيئها معه.

لكن وقتاً طويلاً مضى فيما هو لا يزال جالساً في السيارة يراقبها، وحين التفتت إليه رأى الشك في عينيها، ففتح باب السيارة ونزل ثم قطع المسافة التي تفصلهما.

حين انضم إليها: «أتصوّر أنك كنت تعرف بوجود هذا المكان الجميل».

ثم التفتت مجدداً نحو المنظر وأضافت بكآبة: «إنه مكان مدهش».

شعر بالرضى فقال لها: «أعجبك؟ الحمد لله أن السياح لم يكتشفوه بعد».

بدت الضحكة في صوتها وهي تقول: «ونحن في المنحدر شعرت بالرهبة مما تفعله بسيارتك».

أكّد لها بلطف: «إنها مجرد سيارة. وإن احتاجت إلى طلاء من جديد فهذه ليست مشكلة».

هزّت تس رأسها: «تقول هذا ببساطة لكن الناس يهتمون عادة لممتلكاتهم أكثر».

تنهد رايف وأدرك أنه بدا مهملاً ثم قال بنعومة: «ربما تقديري لممتلكاتي مختلف، فالأشخاص أكثر أهمية بالنسبة لي من... كيف أقولها.. من الماديات الأخرى».

هزّت تس كتفيها فلاحظ كيف اكتسبت بشرتها لوناً زهرياً على الفور وفكّر رايف في أن أشعة الشمس قد تسبب لها حروقاً. وتعاظمت رغبته في حمايتها، هذه الرغبة التي سبق ولاحظها. أراد أن...

لكن لا! عاد مجدداً إلى السيارة وحمل أكياس الطعام ثم قال لها وهو يقف فوق بقعة من العشب الأخضر: «تعالي إلى هنا.. يمكننا تناول الغداء في ظل التلة».

رآها تلتفت مجدداً إلى السيارة قبل أن تلحق به، ثم خلعت حذاءها فيما بسط سترته على الأرض ليجلسا عليها. فجلست على السترة ثم رفعت

ركبتيها وطوّقتهما بكلتي يديها. جلس رايف بجانبها محاولاً عدم النظر إلى بشرتها الناعمة.

وبينما بدت مهتمة بالأصداف الصغيرة المطمورة في الرمال أكثر من اهتمامها بالطعام قال لها:

- ماذا تودين أن تأكلي؟ السلطة أم البيتزا؟

- ماذا؟ آه...

أدرك فجأة أنها تعمدت أن تبدو وكأنها لم تلاحظ نظراته ثم أردفت: «السلطة تناسبني».

- السلطة فقط؟

تململت قليلاً بارتباك وقالت: «حسنٌ... ربما قطعة من البيتزا أيضاً».

ثم أخذت علبة السلطة من يده وتابعت تقول: «شكراً لك، تبدو جيدة».

- أتمنى ذلك.

حمل قطعة البيتزا ليأكلها وهو يتظاهر بالحماس، فسقط القليل من عصير الطماطم على ذقنه فأخذ منديلاً ورقياً ومسحه على الفور وقال: «والرفقة جيدة أيضاً».

تمتمت: «أنا متأكدة من أنك تجاملني فقط».

وتابعت وهي تأكل القليل من السلطة: «ولكنه لطف منك، وأنا أقدّر ذلك».

آلمه أن تظن أن ما من أسباب أخرى لدعوته لها فقال: «لم أدعُك بسبب طيبتي فقط».

ابتلع قضمة ثانية من البيتزا وتابع يقول: «أنا من عليه أن يشكرك لمرافقتي إلى ڤيالي».

تردّدت تس قليلاً ثم قالت أخيراً: «لا أعلم لماذا، ولكن كان أسهل للجميع لو أنني لم آتِ برفقتك».

www.elromancia.com

بدا رايف نافد الصبر وهو يقول: «أظن أننا ناقشنا ذلك منذ بعض الوقت. هل بإمكانك أن تنسي سبب قيامنا بهذه الرحلة وتركّزي على وجودنا هنا فقط، أم أنك لا تستمتعين برفقتي؟».

وجّهت نحوه نظرة خاطفة وسألته: «لِمَ تقول هذا؟»

زفر مرهقاً وقال: «تعلمين ما أقصد. منذ خروجنا من الفندق وأنت متوترة كقطة مذعورة. ماذا فعلت لك؟ هل قلت ما أزعجك؟»

- لا... لم تفعل.

أتى جوابها سريعاً. وفجأة، وضع رايف قطعة البيتزا من يده ووقف على قدميه وهو يقول:

- إن كنت تريدين إكمال السلطة في السيارة فيمكننا العودة الآن.

- لا.

جاء جوابها سريعاً مجدداً. ولكن نظرة خجولة رافقته هذه المرة وتابعت تقول:

- أرجوك، لم أقصد أن أزعجك. إنها فقط... حسناً... أنا واثقة من أنك تفضل أن تكون في مكان آخر الآن عوضاً عن البقاء معي.

- ماذا لو كنت مخطئة؟

- هل أنت واثق ممّا تقول؟

استلقى بقربها ولمس خدها بإحدى يديه بطريقة لا إرادية ثم أدار وجهها نحوه وقال:

- نعم، صدقيني عزيزتي... في هذه اللحظات لا أرغب في الذهاب إلى أي مكان أكثر مما أرغب في البقاء هنا معك.

بدا لون عينيه داكناً وهو ينظر إليها، لكن الأمر لم يستمر سوى لثوانٍ محدودة. شعر أن الموقف أصبح خطيراً لأنه أدرك ما يريد وبالضبط، فأنزل يده عن خدها بسرعة ووقف على قدميه مجدداً. بعدئذ، نظر إليها وقال بتوتر:

«حسناً.. استمتعي بغدائك، لن أطيل الغياب».

اتسعت عيناها وهي تسأل: «إلى أين ستذهب؟»

كبت رايف آهة في داخله وتساءل عن ردّ فعلها لو أخبرها الحقيقة. إنه يائس ويودّ الابتعاد قليلاً للمحافظة على مسافة بينهما قبل أن يقدم على أيّ تصرّف خاطىء. قال أخيراً: «فكّرت في أن أتمشى قليلاً. أحتاج إلى تحريك قدميّ».

أشاحت تس بنظرها عن ملامح وجهه والتفتت إلى المياه المتموّجة فلمح نظرات عينيها الحزينة. لكنها اكتفت بأن تقول: «حسناً».

شعر رايف بالذنب تجاهها، فهو من اصطحبها إلى هذا المكان، وهي ليست المذنبة إذا لم يتمكّن من ضبط نفسه.

- تعالي معي إن أردت.

هبّت تس في الحال بحماس. وسألته وهي تضع علبة السلطة التي تحوي بقايا طعامها على الرمال: «ألا تمانع؟»

علت وجهه ابتسامة باهتة إذ أنها اتخذت قرارها ولم يعد بإمكانه شيئاً. ولكن هذا لا يعني أنه أراد تركها بمفردها.

تركت تس حذاءها مع الأغراض الأخرى وأخذت تركض على الرمال لتصل إلى مياه الخليج المعتدلة البرودة. ارتجفت بشكل مفاجىء وأخذت تضحك حين وصلت موجة إليها وغطّت كاحليها. فكّر رايف بكآبة في أنها تبدو طبيعية كالأطفال في التعبير عن مشاعرها، تماماً كولديه قبل سن المراهقة وقبل أن يغيّر هجر والدتهما حياتهما كلياً.

مدّت يديها فوق رأسها ببهجة عارمة وقالت له: «المكان كالجنة. شكراً جزيلاً لأنك اصطحبتني إليه».

قال بتهذيب وهو يجبر نفسه على البقاء ساكناً: «أنا سعيد لأنك تستمتعين بوقتك».

كان متأكداً من أنها لا تدرك مدى تأثيرها فيه، لكنه تخيّل نفسه وهو يطوّقها

www.elromancia.com

بذراعيه.

سرّع رايف خطواته بشكل لا إرادي، وحين أدرك ذلك نظر إلى الخلف ليرى أنها أصبحت بعيدة عنه. كانت تلحق به ببطء وهي ترش المياه وتحرّكها وقد تبدّد فرحها بالمكان بسبب قلّة اهتمامه بها. ومن جديد ساوره شعور بالذنب سبب له الألم، إذ ليس من العدل أن يفسد نهارها. عندئذ، انتظرها حتى تنضم إليه لكنها لم تنظر في عينيه هذه المرة، بل وقفت إلى جانبه وعيناها مسمرتان على يخت ما لبث أن اختفى عند الأفق. من الواضح أنها لاحظت تغيّر تصرفاته ولكنها أخطأت فهم الأسباب.

سألها وكأنه لا يعرف ماذا يجري: «ما المشكلة؟ الطقس حار أليس كذلك؟ هل أصابك الضجر؟».

- هل ضجرت أنت؟

لم يعلم بما يجيبها فردّ بضعف: «لقد... تأخر الوقت، وأخشى أن تحترق بشرتك من أشعة الشمس».

لم تكن الساعة قد تجاوزت الثالثة بعد الظهر. رفعت تس ذراعيها ونظرت إليهما وكأنها لم تلاحظهما من قبل، لكنها لم تَبدُ مقتنعة بل هزّت كتفيها بلا مبالاة وقالت من دون اقتناع: «لعلك محق، إن كان هذا ما تريده».

تشنّج رايف وقال: «لا يهم ما أريده أنا».

لاحظ نظرات ساخطة في عينيها الخضراوين وهي تقول: «بل أظن أنه يهم. كان عليّ أن أدرك ذلك من قبل، حين قلت إنك تريد أن تتمشى قليلاً، لم تكن تريدني أن أرافقك أليس كذلك؟».

شعر رايف وكأن قلبه توقّف عن الخفقان. لم يدرك أن تصرّفاته واضحة إلى هذا الحد.

- لا... لا، هذا ليس صحيحاً.

- أنا لا أصدّقك سنيور.

كان واثقاً من أنها استخدمت كلمة سنيور متعمّدة وقد أغاظه ذلك. وتابعت تقول:

- هذه التصرفات كلها وشراء الطعام وإحضاري إلى هنا، كل هذا لتريح ضميرك ليس إلاّ.

صُدم رايف بكلامها وردّد وقد أزعجه ذلك الاتهام:

- لأريح ضميري؟ لما قد أشعر برغبة في فعل ذلك؟ أنا لم أقم بأي عمل خاطىء.

حتى الآن!

قالت تس بعناد: «لكنك تشعر بأنك فعلت».

للحظات تساءل إن كانت قد قرأت أفكاره. لكنها أنجدته عندما أوضحت ما تقصده فتابعت تقول: «تظن أنك أزعجت ابنتك وأزعجتني، لذا قررت أن ترضي إحدانا بتمضية ساعة من وقتك الثمين معها، أليس كذلك؟»

- أنت مخطئة.

أزعجته طريقتها الموضوعية في النقاش وبعدها عن الحقيقة تماماً.

- حين دعوتك إلى الغداء فعلت ذلك لأنني أردت ذلك وليس لأي سبب آخر.

سألته بتهوّر: «إذاً لماذا تريد الذهاب باكراً؟ هل تأخرت على أحد مواعيدك أو ارتباطاتك السابقة؟»

تسارعت أنفاسه وهو يجيب: «لا، أنا آسف إن أوحيت لك بذلك».

نظرت إليه بحذر وتردّد: «حسناً، بما أفكّر حين تبدو وكأنك تتجنبني؟ أنت متقلّب جداً، وأنا... حسناً، لا أعرف ما تشعر به تماماً».

تمكن رايف من الحفاظ على رباطة جأشه بصعوبة وقال بصوت أجش:

- لم أكن أحاول تجنبك. وإن بدا لك ذلك... فربما لأنك... تعجبيتني كثيراً.

صدمها كلامه هذا، وتمكّن من رؤية ذلك في وجهها. لكنه شعر بالصدمة هو أيضاً، وهذا أكثر إزعاجاً.

- أنت لا تقصد ما تقول، أليس كذلك؟

علم أن هذه هي فرصته الأخيرة ليبرّر كلامه. عليه أن يقول إنه يمازحها ليتمكن من الخروج من المأزق، لكنه لم يفعل. ورغم محاولة عقله اليائسة لمنعه من الكلام قال لها:

- قصدت كل ما قلته. فأنت... ساحرة وجميلة، ولن أكون رجلاً إن لم أشعر برغبة فيك.

فتحت فمها دهشة لكنها لم تتحرك وتبتعد بل على العكس اقتربت منه أكثر حتى لامست أصابع قدميها حذاءه وتفحّصت عيناها الخضراوان المتوقدتان وجهه. وبحركة لا إرادية رفعت يدها لتلمس بشرة ذقنه الخشنة ففقد رايف قدرته على التحكّم بجسمه الذي ارتعش بشكل غريزي.

أصبح صوت تنفسها خافتاً، بالكاد يُسمع، وقالت له: «هل ستعانقني؟»

فردّ بصوت أجش: «تس...»

ومد يديه ليضمها إلى صدره.

كانت تنتظر عناقه فلم يخيّب أملها. وعانقها بحرارة جعلت جسده يرتعش وأفقدته السيطرة على حواسه كلها.

ضمّته تس بقوة فاستعاد رايف وعيه مجدّداً. إن لم يضع حدّاً لما يحدث في هذه اللحظة فسيخرج الأمر عن سيطرتهما تماماً. إنه في خطر حقيقي فهو يتصرف بطريقة حاول تجنبها منذ الصباح. يعلم أنها ليست له، فهي شابة جداً وقد مرّت بأوقات عصيبة. وهو يدرك أن رغبته فيها عوّضتها عن التفكير في المشاكل التي تواجهها، خاصة وأنها لا تملك خبرة واسعة مع الرجال.

عليه أن يكبح مشاعره وإلاّ فستحل عليهما كارثة كبيرة.

أمسك بذراعيها يبعدها عنه، وهو يشعر بالذنب لأنه شجعها منذ البدء.

بدا توترها واضحاً ولا يمكنه لومها، فهو لم يستطع إخفاء ردّ فعله تجاهها. وحين التقت نظراتها المرتبكة بنظرات الندم في عينيه وصلتها الرسالة، فخطت خطوة إلى الوراء قبل أن تستدير وتركض بسرعة عبر الشاطىء.

- عزيزتي.

لم يستطع استخدام اسمها وناداها مجدداً: «عزيزتي... أنا آسف... لا أعلم ما أصابني».

عندئذ، غمغمت شيئاً ما، لكنه لم يسمعها وتصوّر أنّ كلماتها ليست رقيقة. لكن، من يلومها على ذلك؟

لقد تصرّف معها بشكل بغيض وهي تستحق معاملة أفضل. ولا بد أنها تعتقد أنه لا يكنّ لها أيّ احترام.

www.elromancia.com

٨ - في قفص الاتهام

ظنّت تس أنها لن تتمكّن من النوم إلا أنها غطت في نوم عميق حالما وضعت رأسها على الوسادة. استدارت لتستلقي على ظهرها وراحت تحدّق إلى ذرّات الغبار التي تتراقص تحت أشعة الشمس المتسللة من بين ستائر نافذة غرفة النوم.

فكّرت في أنها غفت بهذه السرعة بسبب الحرارة والتعب أو لعله الضغط والإجهاد. فكّرت في ذلك وقد عاودها الشعور بالخجل ممّا حصل بالأمس.

يا إلهي... لقد تصرّفت بغباء! ألم يكفها الإحراج الذي سببته زيارتها لماريا؟ استقامت في جلستها ومرّرت يدين خائبتين بين خصل شعرها. خروجها مع كاستيللي غلطة منذ البداية وحتى النهاية. لم يكن يجدر به اصطحابها معه. كما لم يكن يجدر بها أن تظن أنه منجذب إليها. كيف حدث ذلك؟ حسناً... لقد رمقها بنظرات مغرية. لكنه إيطالي بحق السماء! ومن المعروف أن الإيطاليين هم أكثر الرجال رومنسية في العالم. عليها أن تكون أكثر احتراساً.

حاولت تس مواساة نفسها واقناعها بأنها لم تكن المذنبة الوحيدة في ما حدث على الشاطىء. لقد أثارته لكنه تجاوب معها. إن الموضوع بهذه البساطة والتعقيد في آن.

كان عليها أن تدعه يتمشى بمفرده وألاّ تلاحقه. لو بقيت مكانها وأنهت السلطة لما كانت الآن توبّخ نفسها بقسوة ولما كان عليها أن تتحمل الذل مجدداً حين تراه في المستقبل. هذا إن رأته مجدداً، كما صححت لنفسها. لكنها تتوقع أن تراه من جديد، فآشلي وماركو لا يزالان مفقودين، وحتى تحلّ هذه المشكلة

ستضطر للتعايش مع الموضوع.

أبعدت تس غطاء السرير وأنزلت قدميها على الأرض. إن الجلوس هنا والتفكير في ما حصل لن يجدي نفعاً فالمعرض لن يفتح وحده. ورغم غضبها من آشلي إلاّ أنها وعدتها بالاهتمام بالمكان في غيابها. وحين دخلت لتستحم أخذت تتمنى حلول اللحظة التي ستعود فيها إلى بلادها ورأت أن كاستيللي خاض معركة خاسرة حين سعى إلى ترميم علاقة الصداقة بينهما. شعرت بالإذلال من الطريقة التي أحبطت فيها جميع محاولاته إذ جعلته يرى مقدار ألمها. لا شك أن تصرّفها جعله يقتنع أنها كآشلي تماماً ولا شك أنه اعتبر نفسه محظوظاً لأنه تخلص منها.

ومع هذه الأفكار، لم تطل تس حمامها، فلفّت نفسها بالمنشفة ومشّطت شعرها قبل أن ترتدي بلوزة من دون أكمام صفراء اللون وتنورة ملوّنة وانتعلت حذاء من القماش. وبعد أن ألقت نظرة حزينة على مرآة الخزانة حيث تضع آشلي ثيابها غادرت الشقة. مضى الصباح من دون وقوع أي حادث. الزائر الوحيد الذي دخل المعرض لم يكن زبوناً بل سيلفيو.

- عزيزتي، كيف حالك اليوم؟ هل تشعرين بتحسّن؟

استخدامه لكلمة التحبب «عزيزتي» ذكّرها بكاستيللي.

عبست تس وقالت بعصبية: «ماذا تقصد؟ لم أفهمك».

اتسعت عينا سيلفيو: «بالأمس أقفلت المعرض باكراً، أليس كذلك؟ ومن الطبيعي أن أعتقد أنك كنت متوعكة».

شعرت تس بالاحمرار يعلو وجهها: «لم أقفل المعرض مبكراً... أعني أنك على حق لكن...»

ولم تستطع أن تكذب عليه: «لم يكن السبب أنني أشعر بتوعك».

- أحقاً؟

ورمقها سيلفيو بنظرة متسائلة فعلمت أن عليها شرح الموقف له.

– نعم. . . كان نهاراً جميلاً، فقررت الخروج. . للتنزه.

وعاد يرمقها بعينين ضيّقتين: «وهل استمتعت بتنزهتك؟»

لن تضيرها كذبة صغيرة. ولكي تصرف تفكيره عن التفاصيل قالت: «أليس الطقس حاراً اليوم؟ لقد شغّلت المروحة لكن يبدو أنها تحرّك الهواء الساخن في المكان فقط».

صحّح لها بجفاء: «تبدو الحرارة معتدلة اليوم».

ثم ما لبث أن سأل: «هل لديك مشاريع ما للغداء؟»

– الغداء؟

شعرت تس أنها لن ترغب بتناول الغداء مطلقاً بعد اليوم وأجابت: «في الواقع لا».

وأدركت على الفور ما سيكون التالي فتابعت: «لدي عمل كثير ولا يسعني التفكير بالغداء».

أجال سيلڤيو نظره في أنحاء المعرض الخالي وقال: «لا يبدو لي أنك مشغولة».

واضطرت تس إلى الكذب مجدداً: «ثمة أعمال مكتبية. لن تصدق كمية المعلومات التي جمعتها آشلي عن الفنانين والتي تتطلب التنظيم، فضلاً عن الفواتير. . .»

علّق سيلڤيو بسطحية: «بكلمات أخرى، أنت لا تودّين قبول دعوتي لتناول الغداء. لا داعي لأن تختلقي الأعذار تس، فمن الواضح أن رجلاً آخر سبقني إليك. من هو؟ هل أعرفه؟»

– كلا!

قالت تس ذلك باندفاع وسرعان ما أدركت أنه قد يسيء فهمها، فعادت تصحح كلامها:

– أعني أنّ ما من رجل آخر سيلڤيو. حسناً. . . ليس هنا على أي حال.

ثم تابعت وقد ظهر على وجهها: «لا يمكنني أن أقضي وقتي كله خارج المعرض، هذا كل ما في الأمر».

هزّ سيلڤيو كتفيه: «كما تشائين».

– أنا آسفة.

– وأنا أيضاً. لا ترهقي نفسك في العمل، إلى اللقاء.

أطلقت تس تنهيدة ارتياح بعد أن خرج من الباب واختفى عن ناظريها. وقررت أنها تستحق كوباً من القهوة.

تساءلت وهي تضع الماء في الإبريق إن كانت زيارة سيلڤيو بريئة كما حاول أن يظهرها. أتراه رآها وهي تخرج برفقة كاستيللي يوم أمس؟

قبيل منتصف النهار بدأت تس تشعر بالارتياح، إذ لم تتحقق مخاوفها بشأن قيام كاستيللي بزيارتها بشكل مفاجىء. وبعد قليل، شعرت بتشنّج في معدتها فتذكرت أنها لم تتناول أيّ طعام منذ الصباح، فقررت الذهاب إلى الفرن لشراء سندويش لتتناوله على الغداء.

لم تغب عن المعرض سوى دقائق قليلة. وفي طريق عودتها، رأت امرأة تحاول فتح باب المعرض وقد بدا عليها نفاد الصبر.

وصلت في الوقت المناسب قبل أن تستدير المرأة لتبتعد، فلاحظت تس أنها أكبر سناً مما توقعت.

بادرتها قائلة: «عفواً، بماذا يمكنني أن أساعدك؟»

رأت حاجبين أسودين يرتفعان بحركة أرستقراطية فوق عينين سوداوين. كانت المرأة طويلة، ترتدي بذلة حريرية أنيقة وتنتعل حذاءً عالي الكعبين. دلت هيئتها على انتمائها إلى الطبقة الأرستقراطية.

عرفت تس أنها لم ترَ هذه المرأة من قبل لكنها مع ذلك بدت مألوفة لها. وخطر لها أنها تذكّرها بماريا دي كاستيللي وأكدت تلك المرأة أفكارها حالما تكلّمت. إذ نظرت باشمئزاز من فوق أنفها الطويل إلى تس كأنها تقصد إرهابها، وسألتها

ببرودة:

– آنسة دانييل؟ نعم. دعينا ندخل، آنسة.. أودّ التحدّث إليك.

بدت تس مدهوشة فأطاعتها من دون أن تبدي مقاومة.

فتحت باب المعرض وسمحت للمرأة العجوز بتقدّمها، ثم استجمعت قواها وقالت وهي تبدي أقل قدر ممكن من الطاعة: «هل نعرف بعضنا البعض، سنيورا؟»

لم تجبها السيدة على الفور بل وقفت وسط الصالة تلقي نظرة سريعة على اللوحات المعلقة على الجدران بقرف واضح. وخطر لها فجأة أنّ نظرات تلك المرأة المزدرية قد تكون موجّهة إليها، ولعل هذا صحيح إن كان للمرأة علاقة بماريا كاستيللي. ورغم الراحة التي شعرت بها لأن كاستيللي لم يظهر اليوم إلاّ أنها بدأت تشعر الآن بأنه قد يكون وراء هذه الزيارة.

التفتت المرأة أخيراً وقالت: «أنا أعرفك آنسة دانييل».

فتذكرت تس السؤال الذي طرحته منذ قليل. أردفت المرأة: «أخبرني ابني عنك. أنا لوسيا دي كاستيللي».

قالت الاسم بتكبر وتابعت: «والصبي الذي اختطفته أختك حفيدي».

حبست تس أنفاسها. إذاً، هذه والدة كاستيللي! كان عليها أن تعرف...

رفعت رأسها وقالت بصلابة: «لسنا متأكدين من أن آشلي قامت بذلك».

فقالت لوسيا باحتقار: «بل أعتقد أننا متأكدون سنيورينا. لا أتصوّر الدوافع التي تجعل امرأة قاربت الثلاثين ترغب في اللهو مع طفل صغير».

احتجّت تس على الفور: «ماركو ليس طفلاً. في إنكلترا، يعتبر الأولاد في سن السادسة عشرة أشخاصاً ناضجين».

زمت لوسيا شفتيها: «ما تقولينه آنسة دانييل صحيح تماماً. في إنكلترا المعايير تختلف، والفتيات العازبات لا يمانعن أبداً في إنجاب طفل أو أطفال من آباء مختلفين. لكن الأمور ليست مماثلة في إيطاليا آنسة دانييل، فنحن نحترم الزواج

ونحترم من هم أكبر منا سناً. ونتوقع من زوّارنا أن يقوموا بذلك أيضاً».

بللت تس شفتيها وقالت وهي تحاول جاهدة إبقاء صوتها هادئاً: «أنت ترسمين صورة غير جذابة لبلادي سنيورينا. أؤكد لك أننا لسنا مجتمعاً غير مؤمن، بعض الحقائق لا تكون ظاهرة للعيان».

عبّرت لوسيا عن سخطها قائلة: «من الطبيعي أن تقولي ذلك».

استعادت تس بعض الثقة بنفسها لأن المرأة لم تهاجمها فوراً وقالت: «نعم هذا طبيعي، فنحن لسنا وثنيين سنيورا. هل تظنين أنه من الأفضل أن تبقى المرأة متزوجة من رجل فيما تقيم علاقات مع رجال آخرين؟ هل يُعتبر هذا مقبولاً في إيطاليا؟»

يَمتُ لون لوسيا حالما سمعت تلك الكلمات، فيما صُدمت تس بالعنف الذي ظهر في نبرة صوتها وهي تقول بقسوة: «لقد تكلمت مع رايف أليس كذلك؟ بالطبع فعلت ولهذا هو... هو متعاطف معك جداً. فلديك تبريرات لتصرّفاته الخاصة».

لقد تكلّمت تس بانفعال ولم يخطر في بالها أن والدة كاستيللي ستربط بين كلامها وطلاق ابنها فقالت بذعر:

– نعم لقد تحدّثت إلى ابنك سنيورا. وأنت تعلمين ذلك، ظنّ أنني أعرف شيئاً عن آشلي.

– ولكنك لا تعرفين، أليس كذلك؟

ردّدت تس بتهذيب إنما بحزم أيضاً: «لا».

– هل أخبرك ابني أنه تحدّث إلى ابنته أيضاً؟ ماريا متزوجة وتعيش في ڤيالي على مقربة من هنا.

بدا سؤالها غير بريء أبداً وشعرت تس بالارتباك. هل تعلم لوسيا دي كاستيللي أنها كانت برفقة ابنها بالأمس. هل أخبرها بذلك؟ هل فعلت ماريا ذلك؟ وإن لم يفعلا، فبماذا عليها أن تجيبها الآن؟

غمغمت أخيراً وهي لا تنوي الخوض في التفاصيل: «هو... أنا... نعم أعلم».

ربما ذكر كاستيللي لأمه أنه ذهب برفقتها إلى ڤيالي لكنه امتنع عن اعطائها التفاصيل. أخذت تس نفساً عميقاً وقد شعرت بالارتباك، لكن دخول ثنائي شاب إلى المعرض أراحها.

سألتها وهي تشير إلى الزبونين: «هل من سبب محدّد لزيارتك سنيورا؟ فعليّ الاهتمام بالزبائن كما ترين. إن كنت تظنين أنّ لديّ معلومات أكثر مما قلته لابنك فأخشى أن أخيّب ظنّك».

زمت لوسيا شفتيها: «أعتقد أنك تعرفين أكثر مما قلتِ آنسة دانييل. فأنا لست مثل ابني.. لا أنخدع بالتصرفات البريئة والوجه اللطيف».

قالت تس بصوت منخفض رافضة أن تلاطفها أكثر: «أعتقد أنه من الأفضل أن تذهبي سنيورا فعليّ أن أعمل. وأنا متأكدة من أن لديك أمور أخرى تقومين بها عدا الوقوف هنا وتضييع وقتي. أنا آسفة بشأن حفيدك، أنا حقاً آسفة. لكن ليس هناك ما يمكنني القيام به حيال الموضوع».

بدت لوسيا وكأنها ستنفجر غضباً وللحظات توقعت تس توبيخاً آخر منها. لكنها دُهشت حين رأت أن غطرسة لوسيا اختفت فجأة وبصورة كلية، وبإيماءة إحباط فتحت حقيبتها وأخرجت منديلاً.

لم تعرف تس ما هو الأسوأ، أن تهاجمها والدة كاستيللي أم أن تنكسر أمامها! بدأت الدموع تنهمر على وجنتي تلك المرأة التي بدت شديدة الإحباط. خشيت تس أن يلاحظ الزبونان دموعها كما شعرت بالاستسلام فأمسكت بذراع لوسيا ورافقتها إلى المكتب. وبعد أن أجلستها خلف مكتب آشلي وأشارت إلى الحمام قالت: «يمكنك أن ترتاحي هنا وحين تشعرين بتحسّن اخرجي مجدداً، سأحرص على ألاّ يزعجك أحد».

وكما توقعت تس، لم يشترِ الشخصان اللذان يتجولان في المعرض شيئاً.

وأدركت أن السنيور سكوتولينو محق، فمنذ يوم عملها الأول لم تبع سوى ثلاث لوحات فقط، وهذا لا يكفي لتسديد الفواتير.

مضت خمس عشرة دقيقة قبل أن تتذكّر السندويش، فقد وضعته جانباً وهي تتحدث إلى السنيورا دي كاستيللي. ودّت الذهاب إلى المكتب لتعد لنفسها بعض القهوة. لعل السنيورا دي كاستيللي ترغب بالقهوة أيضاً.

لكنها قالت للمرأة إنها لن تزعجها في المكتب وستبقى على وعدها. من الواضح أن لوسيا ستأخذ وقتاً طويلاً لتستعيد هدوءها. لذا، ألهت تس نفسها بترتيب بعض اللوحات، ثم أقفلت النوافذ لتخفف من حرارة الشمس. بعد مضي نصف ساعة بدأت تشعر بالقلق، وراودتها أفكار عديدة كما تملّكها الخوف من أن تؤذي لوسيا نفسها بسبب حزنها. هذه الفكرة بدت سخيفة كما أدركت تس، فالوضع ليس بهذه الخطورة.

بعد مرور خمس وأربعين دقيقة، تسلل اليأس إلى قلب تس. حسناً، لقد وعدتها بألاّ تزعجها، لكن الوقت طال. وحملت السندويش وتوجّهت إلى باب المكتب، وقالت وهي تفتحه: «سنيورا دي كاستيللي، هل تشعرين بتحسن؟»

بدا المكتب خالياً. يبدو أن لوسيا خرجت من الباب الخلفي، بينما كانت هي تنظر بقلق في صالة العرض. لم يكن ثمة داعٍ لقلقها إذ يبدو أن المرأة جففت دموعها وانصرفت.

لم تعرف تس إن كان عليها أن تشعر بالارتياح أم بالامتعاض. فرحت لأن المرأة انصرفت لكن كان عليها أن تستأذنها قبل استخدام الباب الخلفي. كان الباب مفتوحاً جزئياً فأغلقته.

تفقدت تس حقيبتها وتأكدت من أن أحداً لم يدخل إلى المكتب عنوة. جواز سفرها لا يزال في حقيبتها وكذلك النقود التي أحضرتها معها للرحلة. وعبست فجأة... كانت متأكدة من أنها وضعت جواز سفرها في جيب الحقيبة الجانبي حين طلبت كاستيللي رؤيته منذ أيام. لكنها وجدته الآن في الجيب الرئيسي قرب محفظتها. هزّت تس كتفيها، ربما أخطأت حين أعادته إلى مكانه في المرة

السابقة، وهي لم تستخدمه في اليومين الماضيين. لذا، لم تعد متأكدة أين وضعته بالضبط. على أيّ حال، ما يهمها هو أنه لم يُفقد.

أفرغت إبريق القهوة وملأته بالمياه من جديد، ثم جلست تأكل السندويش وهي تنتظر انتهاء قهوتها. لم يكن طعامها شهياً، فالسندويش فقد طعمه ولو لم تكن تشعر بالجوع لوضعته في سلة المهملات.

وفيما كانت تشرب القهوة راحت تفتح أدراج المكتب بشكل تلقائي. لم تكن تبحث عن شيء محدد، لكن الشكوك ساورتها. وتساءلت إن كانت لوسيا قد بحثت في المكتب قبل رحيلها. وهذا يشرح وجود جواز سفرها في غير مكانه، ولعله يشرح أيضاً السبب الذي جعلها تخرج من دون توديع تس. وأدركت أن تلك المرأة لن تهتم مطلقاً إن كان تصرفها قد جرح شعور تس.

أقفلت المعرض باكراً، إذ لم تشأ المخاطرة بمجيء سيلفيو ليدعوها على العشاء. فكّرت في أنها لم تكن يوماً مرغوبة كثيراً في إنكلترا، فقد شغلت نفسها بعملها معظم الوقت كما أنّ الرجال الذين عملت معهم لم يجسدوا الرجل الذي تحلم به.

عاشت تس علاقة حب واحدة مع شاب التقت به في الجامعة. وقد بقيا على اتصال مدة سنتين، لكن انتقال تس إلى ديربيشاير وضع حداً لعلاقتهما. لعلها لم تكن مؤهلة لإيجاد الشريك المناسب، هذا ما خطر لها وهي تقود السيارة عائدة إلى شقة آشلي. إنها مثال المدرّسة المتفرغة! تراءت لها صورتها مع كاستيللي على الشاطىء، لكنها دفعتها جانباً. ورغم أنها هي من قام بالخطوة الأولى إلاّ أنّ كاستيللي هزأ منها من دون شك. فهو مكتمل الرجولة وربما أشبع غروره أن تتقرب منه امرأة شابة، حتى وإن كان يشعر بالأسف عليها.

ورغم أنه تجاوب معها إلا أنه كان من الأسهل عليه تجاوز الأمر وهذا ما آلمها. لم تفهم كيف تمكّن من التحكم بعواطفه بهذا الشكل، أو ربما ليس للمشاعر علاقة بالموضوع. من الواضح أنها مخطئة إن ظنّت أنه شعر باللهفة التي

كانت تشعر بها. فبينما فكّرت كم سيكون من الجميل أن يمضيا بعض الوقت معاً يبدو أنه كان يفكر بأشياء أخرى. لكن بما كان يفكّر؟ لو لم يتجنب التحدث عن آشلي في طريقهما إلى سان ميشيل لظنت أن إيجاد أختها هو ما يشغله. ربما أعتقد أن إغوائها سيجعلها تعترف بأمور لم تخبره بها من قبل.

لقد تصرّف وكأن شيئاً لم يحصل وكأنه لا يدرك أبداً حقيقة شعورها.

كانت واثقة من أنها لن تسامحه على ذلك. فرفضها أمر وتجاهلها أمر آخر. لكن، ما الذي كانت تتوقعه؟ كل ما يريده كاستيللي هو بعض المعلومات. لم يكترث لأمرها قط، وكل ما يهمه هو إيجاد ابنه.

سمعت أصواتاً تتعالى من الفناء السفلي، فشعرت بالحسد من هؤلاء الأشخاص الذين يمرحون بابتهاج.

وفجأة، سمعت جرس الباب يُقرع، فجمدت مكانها ونظرت سريعاً إلى ساعة يدها. لقد تجاوزت الساعة التاسعة مساءً. لا يمكن أن يكون الطارق زائراً عادياً، لذا لا بدّ أنها أندريا. من قد يكون غيرها؟

لم يكن الطارق أندريا، بل رجلاً. وهو آخر رجل توقعت رؤيته... حدّقت إليه غير مصدقة. قال كاستيللي بخشونة وهو يلقي التحية: «كان عليك التحقق من هوية الزائر قبل أن تفتحي الباب. من كنت تتوقعين؟»

بدت تس مذهولة فلم تتمكن من الكذب وقالت: «لا أحد، لم أكن أنتظر أحداً».

ثم حاولت استعادة وعيها وأضافت بعجز: «ماذا تفعل هنا سنيور؟ هل تتفقّد الأحياء الفقيرة؟»

زمّ كاستيللي فمه وقال بخشونة: «لن أتنازل وأجيب عن هذا السؤال»

ثم تابع يقول وهو ينظر إلى داخل الشقة: «هل أنت بمفردك؟»

لم تكن تس بمزاج يسمح لها بمراعاته فأخذت نفساً عميقاً وسألته: «وما شأنك أنت؟»

كانت تعابير وجهه الآسفة، لا بل النادمة حين دفعها بعيداً عنه على الشاطىء، لا تزال تؤلمها.

كيف يجرؤ على المجيء إلى هنا والتصرف وكأنه يملك الحق في معرفة ما تفعله؟ أم هدف زيارته هو أن يجعلها تعتذر عما قالته لأمه؟.

تنهد كاستيللي وقال: «هل يمكنني الدخول؟»

- لماذا؟

قال بصبر: «لأنني أريد التحدّث إليك وأفضل أن يكون الحديث على انفراد».

٩ - ستسامحينني؟

اشترت تس بعض الدجاج والخضار وهي في طريقها إلى المنزل، وما إن وصلت حتى بدأت بطهوها للعشاء. لم تكن تشعر بالجوع في الواقع، لكن لا فائدة من تجويع نفسها لأنها مع رجل. ليست المرأة الأولى ولا الأخيرة التي تفعل ذلك وشعرت بالرضى لأن كاستيللي أظهر على الأقل بعض الاهتمام بها.

وبعد أن بذلت جهداً لا بأس به لتستمتع بطعامها، حضّرت لنفسها فنجاناً من القهوة وحملته إلى شرفة غرفة النوم لتشربه.

كان الظلام قد حلّ ولم يبق سوى خط من النور يلمع عند الأفق. سمعت تس من مكان ما صوت ساكسوفون يعزف لحناً شجياً، فامتلأت عيناها بالدموع لا إرادياً، وفكرت بتعاسة أنّ من المفترض أن تكون زيارتها هذه بسيطة، فما الخطأ الذي حصل؟

وعرفت الجواب.. الخطأ موجود منذ البداية، لأن أندريا لم تكن مريضة، ولم تُستدعَ آشلي إلى المنزل للاهتمام بها، بل قررت الاختفاء برفقة شاب يصغرها بسنوات، مسببة الارتباك لأختها والمضايقة لأسرته.

حبست تس أنفاسها إذ راودتها فكرة جديدة، حين تذكرت ما قالته والدة آشلي. فغداً يوم الجمعة. وراحت تصلي لئلا تقرر أندريا أن تنفذ تهديدها فتأتي إلى إيطاليا بنفسها.

يا إلهي! هذا ما ينقصها! أن تصل زوجة أبيها من دون سابق إنذار. أين تمكث؟ الشقة لا تتسع لشخصين، ورأت تس أنها من سيضطر إلى إيجاد مكان آخر للإقامة.

شعرت تس بالتمرد بعد أن ضاع كل أمل في أن يكون هدف قدومه الاعتذار منها بنفسه فقالت: «لا أظن أنني أودّ التكلم معك الليلة سنيور».

انتظرت قليلاً ثم أضافت تبرّر كلامها: «كنت على وشك الخلود إلى النوم».

ظهر الارتياب على وجهه: «في التاسعة والربع؟ لا أعتقد ذلك عزيزتي!»

قالت تس بغضب: «لا تناديني عزيزتي، كما أنه ليس من شأنك ما أود فعله سنيور. سأكون في المعرض غداً صباحاً إن كان لديك ما تقوله لي».

- تس!

استخدامه لاسمها كبح تمردها، إذ لان صوته وأصبح أعمق وأكثر إقناعاً ما جعلها تشعر برعشة في جسدها كله.

لكنها ما لبثت أن وجدت الكلمات المناسبة: «إن كانت هذه طريقتك لجعلي أعتذر من والدتك فأنت مخطىء».

ثم استقامت في وقفتها وتابعت: «قصدت كل كلمة قلتها ويمكنك إخبارها أنني لم أحبّذ الطريقة التي غادرت فيها حتى من دون إغلاق الباب خلفها».

قطّب كاستيللي. وقبل أن تدرك تس ما ينوي القيام به أزاح يدها عن الباب ودخل إلى الشقة. اضطرت إلى الابتعاد عن طريقه لتتجنب أي اصطدام بجسده القوي ما أعطاه فرصة لإغلاق الباب خلفه.

كانت تس على وشك أن تطلب منه مغادرة الشقة حين قال: «عمّ تتكلمين بحق السماء؟ لم أكن أعلم أنك التقيت أمي».

دهشت تس ولم تشأ تصديقه، لكنها وجدت ما أقنعها في نظرات وجهه. وقالت رغماً عنها:

- أنا... لقد أتت إلى...

ثم رفعت كتفيها وأضافت: «ظننتك تعلم ذلك».

- حسناً، من الواضح أني لم أكن على علم بشيء.

- لا. أنا آسفة. ظننت أن هذا هو سبب زيارتك.

أومأ كاستيللي بخيبة وهو يمشي إلى غرفة الجلوس ثم حدّق عبر النافذة إلى الأنوار في الشارع وقال:

- حسناً، فهل من أسباب أخرى تدفعني للمجيء برأيك؟

عضّت تس على شفتها السفلى، وفكّرت بجفاء أن عليها ألاّ تشعر بالأسف عليه.

تمكنت تس من مراقبته جيداً وهو يدير ظهره. تفحّصت كتفيه العريضتين تحت قميصه الأسود، وجسده المتناسق والمشدود. لم يبدُ وكأنه يرتدي ما يناسب زيارة اجتماعية. ماذا يعني هذا؟ هل أتى لرؤيتها فقط؟

حبست أنفاسها، وشعرت وكأن عظامها تذوب. قالت بسرعة وقد خشيت أن يخونها صوتها: «آشلي.. أتيت إلى هنا من أجل آشلي».

ثم صمتت قليلاً لتتمكن من أخذ نفسٍ أعمق: «هل عرفت مكانهما؟»

استدار نحوها وقد وضع يديه في جيبي سرواله: «لا».

ثم صمت لحظة قبل أن يضيف: «لم يوفّق فيرديسي في جنوى. إذا كانت أختك قد استأجرت سيارة، فيبدو أنها فعلت ذلك تحت اسم مستعار».

ابتلعت تس ريقها سألت: «هل بإمكانها القيام بذلك؟»

أجابها كاستيللي بعدم اهتمام: «إذا كان لديها شريك. هل تعلمين إن كان لآشلي أصدقاء في سان ميشيل؟»

هزت تس رأسها وكلها ثقة بأن آشلي لم تحدّثها يوماً عن أي صديق.

- ليس على حد علمي، فهي هنا منذ تسعة أشهر فقط ومن الصعب أن تتقرّب من أحد كثيراً في هذه الفترة القصيرة.

فقال كاستيللي بنعومة: «باستثناء ماركو».

رأت تس إحباطه فيما أردف: «أخبريني عن أمي. أعتقد أنها سألتك عن أختك، ما الذي قالته لتزعجك؟».

هزّت تس كتفيها وردّت: «لمَ تظن أنها أزعجتني؟»

ظهرت على فمه الجذاب ابتسامة باهتة وأجاب بجفاء: «قلت: إذا جئت لأجعلك تعتذرين منها فأنني مخطىء، أليس كذلك؟ أرجوك، أودّ معرفة السبب الذي جعلها تتحدّث إليك».

تنهّدت تس قائلة: «ظنّت أنني أعلم أكثر مما قلته سابقاً».

سألها بنبرة لاذعة: «أكثر مما أخبرتني إياه؟»

هزّت تس رأسها: «شيء من هذا القبيل».

سحب يديه من جيبيه وكتّفهما فوق صدره ثم قال: «النتائج التي توصّلت إليها أنا لم تشعرها بالرضا. هل أخبرتك كم خيّبت أملها كزوج وكوالد؟»

ذهلت تس أجابت: «لا! لم تقل شيئاً مماثلاً».

- لكنها لمّحت إلى أنني الملام على تورّط ماركو مع أختك؟

هزّت رأسها: «لا، بل لامت آشلي ولم توجّه اللوم إليك أو إلى ماركو. قالت إن آشلي أفسدت حفيدها وإنه مجرّد طفل. وحين قلت لها إن الفتية في السادسة عشرة لا يعتبرون أطفالاً في إنكلترا، انتقدت كلامي».

صمتت تس قليلاً ثم تابعت: «أنت... بالكاد أتت على ذكرك».

قال كاستيللي ساخراً: «لقد خيّبت أملي».

علّقت تس بسرعة: «أنا واثقة من أنها لا توافق أيضاً على علاقتك بي. فهي تظن على الأرجح أنني سأفسدك أيضاً».

نظر كاستيللي إليها بلطف وتسلية وقال: «هل تعتقدين أن ذلك ممكن عزيزتي؟ أنا لست صبياً سهل التأثر، ينبهر بمظهر المرأة الخارجي، فالإعجاب بالوجه الجميل سريع الزوال بحسب خبرتي. وإن كان عليّ الاختيار فأنا أختار العقل قبل الجمال».

لم تتمكن تس من كبت سخريتها: «كم أنت نبيل! ألهذا السبب تركتك زوجتك؟ لأنها لم تتمكن من العيش مع هذه المثالية؟»

ما قالته لا يغتفر، لكن تس رفضت الشعور بالندم. فقد أتى إلى هنا وهو

يشعر أنّ من حقه أن يفرض نفسه ويدخل إلى الشقة بذريعة لم تكتشفها بعد. حسناً، لعل تصرّفها على الشاطىء جعله يعتقد أنها مستعدة لفعل أي شيء يطلبه منها.

تحرّك كاستيللي باتجاهها فبذلت جهداً لتمنع نفسها من الاحتماء وراء المنضدة.

لم يبد غاضباً بل مستغرقاً في التفكير، وكأنه يدرس ما قالته له، ليقرر كيف يجيبها.

- لا أريد مناقشة موضوع زوجتي معك.

كلامه جعلها تشعر بالرضى وتابع كاستيللي: «فأسباب تركها لي ليست جزءاً من هذه المعادلة».

أصبحت تس واثقة من أنها سببت له التوتر. وقالت مذهولة لتهوّرها: «إذاً... كنت محقة، أنت مثل والدتك وماريا. فأنتم أفراد عائلة كاستيللي تظنون أنكم لا تخطئون أبداً».

قال بخشونة وغضب: «لا».

ولأول مرة أدركت تس أنهما وحيدان. قال وهو يقترب منها: «لست محقة في ما تقولينه. لم ننفصل أنا وجينا بسبب مثالياتي إلاّ إذا كنت تعتبرين معاشرتها لرجال آخرين سبباً غير مقنع».

تراجعت تس إلى خلف المنضدة وهي تشعر بالخزي والخجل.

قالت بحزن: «أنا آسفة.. لم يكن يجدر بي قول ذلك».

بللت شفتيها وحين لم يتكلّم أضافت بحس فكاهة بسيط: «عليك أن تلوم والدتك، فقد اعتدت معها على الدفاع عن نفسي».

زم كاستيللي شفتيه وقال: «وأنت تفعلين ذلك بنجاح. لكنك مخطئة بشأني فأنا شخص شديد التواضع».

- أحقاً؟

www.elromancia.com

لم تستطع منع نفسها من التساؤل وبدا وكأنها لا تستطيع التكلّم معه من دون استفزاز. أمسكت زجاجة العصير التي تركتها على المنضدة من قبل وتظاهرت بتفحصها. أرادت القيام بأي شيء يجنبها النظر إليه والتجاوب مع رجولته الطاغية.

قال بعد لحظات: «يبدو أن الكلمة الأخيرة كانت لك حين تكلّمت مع أمي».

تساءلت تس إن كان يحاول تلطيف الأجواء، ونسيت لما كانت غاضبة منه. لكن التحدث عن والدته أقل خطورة وهو غير مؤذٍ. اعترفت: «هذا لأنها بدت حزينة».

وضعت الزجاجة جانباً وفتحت الدرج تفتش عن الفتاحة ما أعطاها عذراً آخر لئلا تنظر إليه وتابعت: «اقترحت عليها الدخول إلى المكتب كي تستعيد هدوءها، فخرجت من الباب الخلفي من دون إغلاقه خلفها».

عبّر كاستيللي عن سخطه وردّد غير مصدق: «بدت حزينة؟ يبدو لي أنك لا تتكلمين عن المرأة التي أعرفها، عزيزتي. لوسيا لا تشعر بالحزن، إلاّ إن كان لديها هدف معين».

- حسناً، ربما أرادت أن تبقى لبعض الوقت بمفردها في المكتب.

والتفتت إليه بوجهٍ كئيب وأردفت: «أنا... حسناً، لست واثقة تماماً من هذا، لكنني أعتقد أنها فتشت مكتب آشلي».

بدا كاستيللي مصدوماً، وقدرات ذلك بوضوح: «مستحيل، لا... لوسيا قد تقوم بأمور عديدة، لكن عزيزتي، أن تسرق!».

تنهدت تس وقالت: «أنا أصدقك... لكنني أعتقد أنها كانت تبحث عن شيء محدد».

- ماذا؟

هزت تس كتفيها وحاولت فتح زجاجة العصير من دون جدوى فتولى

كاستيللي المهمة عنها وقال بصبر واضح: «دعيني أفعل ذلك، فتتمكنين من شرح ما تتحدثين عنه».

لم تجادله تس، بل تراجعت إلى الوراء لتدعه يعمل، لكن المطبخ صغير فأصبح كاستيللي قريباً جداً منها.

لم تتمكن من المرور بجانبه من دون أن تلمسه وهذا آخر ما أرادته في وضعها العاطفي الحالي.

ركّزت نظراتها على يديه كي تلهي نفسها، لكنها لم تشعر بالارتياح حين لاحظت قوة صدره وذراعيه وكيف يبرز قميصه عضلاته.

بدت رجولته طاغية وستكون مجرّدة من الشعور إن لم تتجاوب معه.

شعرت بالجفاف في فمها حين أدركت أنه ينتظر شرحاً منها وقالت بسرعة: «أعتقد أن والدتك كانت تبحث عن معلومات تخص آشلي. ربما ظنّت أنني أغفلت شيئاً حين فتشت مكتبها بنفسي».

- إذن، هل وجدت شيئاً؟

قالت تس بحذر: «ليس على حد علمي. لماذا؟ هل تعتقد أنها وجدت شيئاً؟»

أومأ كاستيللي ثم عبس وهو يقول بجفاء: «حتى هذه اللحظات لم أكن أعلم أنها زارت المعرض، فأنا لم أرها اليوم. لذا من يعلم؟»

انفرجت شفتا تس وقالت بغضب: «آمل أن تكون أنت قد أدركت أنني لا أخفي مكان وجود آشلي عنك».

نظر كاستيللي إليها نظرة معبّرة، وتابعت تقول بحرارة: «لم يبد عليك الاقتناع، فهل أتيت اليوم لهذا السبب؟ لأن والدتك اختفت وأنت تظن أنني أعلم أين ذهبت؟»

قال لها بنفاد صبر: «لا تكوني سخيفة! لقد أخبرتك للتو أنني لم أكن أعلم أن لوسيا زارت المعرض».

تحدّته تس: «أنا لا أملك سوى كلامك كبرهان على أنك لم تعلم بزيارتها.

وحتى الآن لم تعطني سبباً مقنعاً لمجيئك إلى هنا».

انحنى كاستيللي فوق المنضدة ثم قال بسخرية مهذبة: «لست هنا بناءً على دعوة منك، لنكن صادقين مع بعضنا. أتريدين مني الرحيل؟»

نعم! هذا ما أرادت قوله لكنها لم تستطع. لا، لم تشأ أن تقول هذا إن أرادت أن تكون صادقة مع نفسها.

قالت أخيراً وهي تستدير إلى إحدى خزائن المطبخ: «أنا واثقة من أنك تعلم تماماً ما أريده».

لكن بما أنه فتح زجاجة العصير فيكون من غير اللائق ألاّ تقدم له الشراب:

- لمَ لا تبقى لتشرب بعض العصير قبل أن ترحل؟

- هل لدي الخيار؟

وكادت توقع الكوبين من يدها، فقد حرّكت أنفاسه الدافئة خصلات شعرها عند مؤخرة عنقها. حين نظرت إليه وجدت أنها أصبحت محتجزة بين جسمه من جهة وخزانة المطبخ من جهة أخرى.

إن استدارت الآن فسيصبح وجهه على بعد سنتيمترات من وجهها، فسألته: «ماذا تفعل؟»

دهشت لأن نبرة صوتها بدت عادية ثم أردفت: «هل تريد العصير؟»

قال يمازحها: «إن كان كقهوتك، فلا أظن أنني أريده».

ثم تابع بشغف مفاجىء: «يا إلهي تس.. هل ستسامحيني على ما حدث بالأمس؟ أعلم أنني آلمتك، ولا تحاولي نفي ذلك. أريدك أن تعلمي أنني عانيت أيضاً».

لم تصدّق تس كلامه، فأخذت نفساً حاداً وقالت: «أنت تحاول إرضاء غرورك وحسب. أما أنا فنسيت الأمر كله».

- لو نسيت الأمر يا عزيزتي لما وقفت هنا خائفة من أن تستديري لمواجهتي.

صمت قليلاً وأنفاسه لا تزال تدغدغ رقبتها ثم أضاف: «لا تخافي،

عزيزتي.. لن أقوم بأي عمل لا تريدينني أن أفعله».

شعرت تس بوخز السخرية في صوته. لكنها لا تنوي السماح له بأن يخدعها مجدداً.

حاولت المحافظة على صلابتها في مواجهة جاذبيته القوية فوضعت الكوبين من يدها وأجبرت نفسها على الالتفات.

ثبتت نظراتها على نقطة بجانب أذنه اليمنى وقالت وهي تكاد تختنق: «وإن طلبت منك الرحيل؟»

تنهّد بقوة وقال بتثاقل وهو ينزل يديه إلى جانبيه: «عندئذ، سأفعل ما تريدين. لكن قبل أن أرحل، ثمة ما أودّ أن أقوله لك».

- ماذا؟

- سألتني لما أتيت إلى هنا، فهل ستصدقين إن قلت إن السبب الوحيد الذي دفعني للمجيء هو رؤيتك مجدداً.

- لا.

انطلقت الكلمات من فمها بسرعة ولم تشعر بالندم حين دفعته جانباً وهربت. كان عليها أن تدرك أنه يستخدم أي وسيلة للوصول إلى هدفه وهي تسهّل المهمة عليه.

- أعتقد أنه من الأفضل أن تذهب سنيور، قبل أن أتصل بالحارس ليرميك خارجاً

بدا تهديدها سخيفاً، فالحارس العجوز في السبعين من عمره. هزّ رأسه وقال بجفاء:

- لا أعتقد أنك ستفعلين هذا عزيزتي.. فأنت لا تحبين المشاكل والفضائح.

تمكّن من قراءة أفكارها بسهولة كالعادة، فكرهت تس ذلك وقالت: «لا تعتمد على هذا. أعلم أنك تعتقد أنني كآشلي، لكنك مخطىء فما حدث على

الشاطىء غلطة، ومن المنطقي أن تضع حداً له كما فعلت».

تنهّد وقال بكآبة وهو يمرّر يداً مستسلمة في شعره: «أنت محقة، ومجيئي إلى هنا غلطة أخرى على الأرجح. اعتبرت الأمر لحظة ضعف، فقد أردت رؤيتك ولم أفكر في الأمر من وجهة نظرك».

سمعت تس ما يكفي: «أرجوك... كلانا يعرف أنك لم تأتِ إلى هنا لتطلب الصفح مني. لقد كنت يائساً وفكّرت كم من السهل إغوائي. لا يمكنني لومك على ذلك».

قال كاستيللي بعنف: «أنت مخطئة. مخطئة بشأن السبب الذي جعلني آتي ومخطئة بشأن ما حدث على الشاطىء».

شرعت تقول: «لا أعتقد ذلك...»

لكنه قاطعها بقساوة: «ماذا؟ لو أني من النوع الذي تظنين، فهل كنت لأتصرّف بذلك التهذيب معك؟ وبالمناسبة، لم أقم بإغوائك عزيزتي. نعم.. أردت أن أفعل. أعترف بذلك ولما لا؟ فأنت امرأة جذابة. لكني لا أتحرّش عادة بنساء أكبر بقليل من ابنتي، فلدي مبادئ وأعلم أنني مسنّ بالنسبة لك».

وهزّ كتفيه بلا مبالاة وتابع: «هذا كل ما أردت قوله».

حدّقت تس إلى وجهه وسألت: «إذن، لما أتيت إلى هنا؟ لما تكبدت عناء المجيء لتخبرني ما لن أصدقه ولا أعتقد أنك تصدقه أيضاً».

التوت شفتاه ثم قال بصوت عميق: «أنت امرأة صعبة تس ولعلك محقة. لم يكن يجدر بي المجيء على أمل أن تفرحي برؤيتي. أنت تعجبينني، وأحب البقاء برفقتك وإن كنت تعتقدين أني تركتك بعد ظهر أمس...»

تنهّد وتابع: «يا إلهي، لم أعتقد أنك ستكونين قاسية بهذا القدر».

شعرت تس بقوة كلماته وترنّح جسدها للمشاعر التي أظهرها. ورغم أنها حاولت جاهدة ألاّ تتأثر بإعجابه إلاّ أنّ التعابير التي ظهرت على وجهه أصابتها بالتشوش وجعلتها غير محصنة.

كرهت نفسها لأنها فتحت المجال أمامه ليتابع كلامه، إذ قالت: «ما الذي تقوله؟ السبب الوحيد الذي جعلك تتركني هو اعتقادك أنك مسنّ بالنسبة إليّ؟»

- ليس كلياً، كنت أفكر بنفسي أيضاً.

هزّت تس رأسها وقالت: «لا أدري لما لم أفاجأ بذلك!»

ثم حبست أنفاسها حين تقدّم وأمسك بمعصمها قائلاً بخشونة: «اسمعيني جيداً».

شدّ معصمها بقوة وأردف: «أنت تعتقدين أنك الوحيدة التي لديها ما تخسره هنا. لكنك مخطئة... أنا لست مستعداً لأن أكون تسلية لشخص يفتش عن علاقة في العطلة فقط».

ابتلعت تس ريقها وقالت: «أنا... لقد فهمت».

- حقاً؟ وهل تعتقدين أن لمسي لك بهذا الشكل غلطة أيضاً؟

ارتجفت تس وقالت: «اتركني إذن».

عقد حاجبيه وفي عينيه إصرار مزعج: «لماذا؟ كي أترك لديك انطباع بأنني قوي كفاية لأكبح مشاعري؟ يا إلهي تس، يجب ألاّ يحصل هذا! أنت صلتي الوحيدة بابني، ومن المفترض أن يكون هذا هو السبب الوحيد للقائنا».

قالت تس لاهثة: «وهذا ما حدث».

كانت لا تزال تشعر بقوة قبضته وقد اكتسحت أصابعه ذراعها كلها لتنتقل إلى كتفها. بللت شفتيها الجافتين ثم قالت محاولة إقناعه: «لما لا تشرب كوب عصير؟ أعتقد أن كلينا بحاجة لبعض الوقت كي نهدأ».

- أحقاً؟

وبحركة مفاجئة شدها إليه بقوّة وعانقها. جاء عناقه كتيار كهربائي صاعق، فشعرت تس بالوهن في ركبتيها وبرعشة امتدت على طول عمودها الفقري.

وجدت صعوبة في أن تبقي عينيها مفتوحتين فيما هي ترغب بإغماضهما والاستسلام لعناقه، وخطر لها أنه يراقبها ويدرك أن من السهل إغواؤها. ثم

غدا عناقه أكثر قوة.

كانت يدا تس مسبلتين على جانبها، إلاّ أنها لم تستطع مقاومة رغبتها في التجاوب معه، فرفعتهما لتضعهما خلف عنقه.

رفع رأسه ينظر إليها وقد غدت عيناه داكنتين ثم قال بخشونة: «لطالما أردت معانقتك، لا بد أنني أصبت بالجنون الليلة كي أضرب كل المحاذير بعرض الحائط».

- لست طفلة، ولست مضطراً لأن تقلق بشأني.

- ربما ما كان يجدر بي أن أعانقك لكنني رغبت بذلك منذ اليوم الأوّل الذي رأيتك فيه.

لم تجد في نفسها الشجاعة كي تعترف له بأن هذا شعورها أيضاً فعاد يقول:

- إنك رائعة الجمال عزيزتي.. وجسمك رائع أيضاً.

فهمت تس كلمة «رائع» مع أنه قالها بالإيطالية لكنها لم تصدّقه، فهي قصيرة القامة ومقاييسها ليست مثالية. لكن كاستيللي ساحر.

وتساءلت لما لم يتزوج ثانية. ولم تشك لحظة واحدة في أن السبب في ذلك ليس قلة النساء اللواتي يحمن حوله. وعاد يضمها إلى صدره في عناق رائع كاد يخطف منها الأنفاس.

- كاستيللي...

- رايف.

صحح لها بنعومة ثم أردف: «اسمي رايف. لقد تعبت من كوني «كاستيللي» فقط بالنسبة إليك».

قالت بلهجة ملؤها الخضوع: «رايف.. أرجوك... علينا أن نتوقف عن ذلك».

فقال يغيظها: «لماذا؟ فنحن نستمتع بالأمر».

كان يعلم أنها على حق لكنه عاد يعانقها بقوة حتى كادت تفقد صوابها.

١٠ - عطلة رسم

استيقظت تس عند الصباح وهي تعاني من صداع قوي، بعد أن تناهى إليها صوت طرق عنيف على الباب.

للوهلة الأولى ظنت أن الطرق داخل رأسها، إلاّ أنها سرعان ما أدركت أن أحدهم يقرع بابها.

لم يغادر كاستيللي بالأمس إلاّ في وقتٍ متأخر، وقد شعرت تس أنها تقضي برفقته أجمل لحظات حياتها. لم يقطع لها كاستيللي أي وعود، وعندما خرج من المنزل لم يقل أي كلمة عن إمكانية لقائهما من جديد، مع أنها أملت أن يبقيا على اتصال حتى عودة آشلي وماركو. لكنها لا تريد أن تمنّي نفسها بآمالٍ زائفة.

عاد الطرق على بابها من جديد، فسحبت الغطاء تغطي رأسها لتبعد هذا الصوت المزعج عن إذنيها. لم يجدِ ذلك نفعاً، إلا أنه حجب عنها نور الصباح الذي تسلل من النافذة وذكّرها بما حدث ليلة أمس حين تبادلت العناق مع كاستيللي تحت ضوء القمر.

علمت تس أن عليها الاستيقاظ، فهي لا تزال مضطرة للحلول مكان آشلي في المعرض، حتى بداية الأسبوع المقبل على الأقل.

تأوهت تس. يا إلهي، كم الساعة الآن؟ لقد هدّدتها أندريا مراراً بأنها ستأتي إلى هنا، فتخيلت ما ستقوله زوجة والدها إن وصلت ورأت أنها لا تزال نائمة.

نظرت بذعرٍ إلى الساعة فإذا بها الحادية عشرة.

وتناهى إليها صوت صراخ فيما لا يزال القرع على الباب مستمراً: «تس، تس دانييل، هل أنت هنا؟ هلا فتحت الباب؟ لا أستطيع الدخول إلى شقتي

www.elromancia.com

الخاصة!»

ارتخى فك تس وقبل أن تفهم ما يجري كانت قد اتجهت لتفتح الباب. تذكّرت أنها أوصدت الباب بالمزلاج بعد رحيل كاستيللي لأنها لم تتوقع مجيء أحد.

وتساءلت لما تغيّر مزاجها فأدركت أنّ السبب هو عودة آشلي، فأي احتمال لرؤية كاستيللي مجدداً على انفراد أصبح مستحيلاً.

وخطر لتس أنها قصدت المعرض أوّلاً لرؤيتها، وبما أنها لم تجدها توقعت أن تكون في المنزل. وصرخت تقول:

- أنا آتية، أنا آتية...

وسحبت المزلاج ثم فتحت الباب وقالت: «أنا آسفة، لقد استغرقت في النوم».

لم ترضَ آشلي بالاعتذار فقالت: «آه، حقاً؟»

قطعت الغرفة وهي تنظر إلى تس، فتساءلت هذه الأخيرة إن كانت تشك في أنها استقبلت زواراً في الشقة. أضافت وهي تضع حقيبة ظهرها على إحدى الكراسي: «هل يمكنك إدخال حقيبتي؟ اضطررت لجرها طوال الطريق وأنا قادمة من المعرض. توقعت أن تستخدمي سيارتي وأن تقليني إلى هنا».

قالت تس بلهجة أقل خضوعاً: «آسفة».

وبعد أن أدخلت تس الحقيبة إلى الشقة أضافت: «ربما لو أخبرتني أنك ستصلين اليوم لذهبت لإحضارك من المطار».

أرجعت آشلي خصلات شعرها إلى الوراء بعدم اهتمام وقالت بفظاظة:

- لم يكن ثمة حاجة لذلك، فقد استقليت سيارة أجرة. ظننتك ستشعرين بالارتياح لعودتي.

شعرت تس بغضبها يزداد فردّت: «أنا مرتاحة فعلاً. بالمناسبة كيف حال أندريا؟ يجدر بي أن أتصل بها لأطمئن عليها».

رمقت آشلي بنظرات شك وقالت: «لا تتعبي نفسك، فهي بخير. لكنها تضخّم الأمور حين يتعلق الأمر بمرضها».

تساءلت تس إن كانت آشلي تظن فعلاً أنها نجحت بخداعها. وقالت: «لقد تكلّمت معها إذن؟»

نظرت آشلي إليها مجدداً وقالت: «ماذا؟ بالطبع تكلمت معها».

وصمتت لحظة ثم أردفت: «عمّ تتحدثين تس؟ لقد أمضيت برفقتها الأسبوع الماضي كله».

واجهت تس أختها: «هل فعلت ذلك حقاً؟ يبدو الأمر مضحكاً، إذ قالت لي إنها لم ترَكِ».

استدارت آشلي إليها مجدداً وقد علا وجهها احمرار الغضب: «هل تكلمت معها؟ ما الذي أردت معرفته تس؟ أن تتأكدي من وجودي هناك؟ تباً، ستتساءل الآن عما يجري».

نظرت تس إليها ببرودة وقالت: «كما هو حال الجميع. هل اعتقدت أنني لن أكتشف خدعتك؟ يا إلهي آشلي، أنت تفاجئيني دائماً».

تجهّم وجه آشلي وقالت: «لا تملكين الحق في مراقبتي. ما الفرق الذي سيشكّله مكاني؟ لقد عرضتِ عليّ الاهتمام بالمعرض في غيابي».

ناقضتها تس باختصار: «بل أنت من طلب مني أخذ مكانك في العمل. أخبرتني أن والدتك مريضة وأنها بحاجة إليك. يا لها من كذبة!».

أشارت آشلي إلى ثوبها الذي ارتدته تس وقالت: «حسناً، يبدو أنك كنت تستمتعين بوقتك. من الواضح أنك لم تلتزمي باتفاقنا، كم مرّة تركت المعرض مغلقاً حتى وقت الغداء؟ إنه مصدر رزقي وأنت تعبثين به، أتعلمين هذا؟»

نظرت تس إليها بازدراء وقالت: «أرجوك! المعرض هو آخر ما يهمك».

صمتت قليلاً ثم تابعت: «أين ماركو؟ هل أوصلته إلى الفيللا؟»

حدّقت آشلي إلى وجهها وفتحت فمها استغراباً ثم قطّبت حاجبيها وقالت:

- كيف تعلمين بشأن ماركو؟ يا إلهي! لقد رأيت والده أليس كذلك؟

شعرت تس بالخيبة. فحتى تلك اللحظة كانت لا تزال تأمل أن يكون اتهام آشلي باختطاف ماركو خاطئاً. لكن من الواضح أن ماركو كان برفقتها.

سألتها غير مصدّقة: «هل ظننتِ أن عائلة كاستيللي لن تحاول الاتصال بك؟ تباً آشلي، ماركو لا يزال في السادسة عشرة من عمره».

قالت آشلي بنفاد صبر: «يكاد يبلغ السابعة عشرة لكن يبدو أن عائلته لم تلاحظ ذلك، فهم يحاولون إبقاءه في علبة زجاجية مقفلة، وفي عزلة عن الناس. لا عجب أنه لا يطيق الانتظار كي يخرج من عزلته».

رمشت تس بعينيها وعلّقت بجفاء: «إذاً، قررت مساعدته، أليس كذلك؟ مهما قلت ومهما برّرت فهو لا يزال في السادسة عشرة آشلي. هل توقعت أن يوافق والده على هروبك معه؟»

هزّت رأسها ثم أضافت: «ظننتك أكثر وعياً من ذلك».

عبست آشلي وقالت: «ماذا تعنين بهروبي معه؟»

- هذا ما حصل، أليس كذلك؟ لقد رآكما التحرّي الذي استخدمه كاستر.. والد ماركو وأنتما تستقلان الطائرة المتوجهة إلى ميلانو منذ أسبوع.

- إذاً؟

قالت تس لاهثة: «أين كنتما بحق السماء؟ لم تكونا على متن الطائرة حين وصلت إلى ميلانو، لقد تحققوا من الأمر».

بدت آشلي متمردة للحظة ثم استدارت لتحضّر الشاي، فاضطرت تس إلى انتظارها. أتراها تفكّر في عذر مقبول أم تقرر مقدار المعلومات التي ستخبرها بها؟.

سكبت آشلي كوباً من الشاي وجلست على الكنبة بارتياح شديد ثم التفتت إلى تس وقالت: «لا تنظري إليّ هكذا، لست منحرفة إذا كان هذا ما تظنينه».

صرفت تس بأسنانها. كيف يمكن لآشلي التحدث عمّا حصل بهذا القدر من

اللامبالاة؟ سحبت كرسياً وجلست على طرفها ثم نظرت إلى أختها بإصرار وقالت:

- حسناً إذاً.. أخبريني، ما الذي كان يجري؟

هزّت آشلي كتفيها وهي ترشف من الكوب مجدداً وقالت: «كنا في جنوى».

خطر لتس أن كاستيللي كان محقاً. علّقت وهي لا تزال تنتظر الشرح: «لكنك اشتريت بطاقات إلى ميلانو. لو أنها رحلة بريئة كما تقولين، فلما فعلت هذا؟».

أجابتها آشلي بنفاد صبر: «لإبقاء عائلته بعيداً عنا طبعاً. لم نشأ أن يأتي والده ويلقي علينا محاضراته التربوية».

ثم هزّت رأسها وتابعت: «والد ماركو لا يعترف بموهبته، فحين أخبره أنه يريد الذهاب في عطلة للرسم لم يبدِ أي اهتمام بالموضوع».

عطلة رسم!

شعرت تس بالارتياح: «وهل تعتقدين أن والده على علم بهذا الأمر؟»

- أنّ ماركو مهتم بالرسم؟ بالطبع.

كاد صبر تس ينفد: «لا ليس هذا، بل بشأن عطلة الرسم، لأنني أعتقد أنه لا يعلم».

قالت آشلي بحزم: «أخبره ماركو عن العطلة، لكننا قرّرنا ألاّ نخبره عن المكان الذي سنقصده لأسباب واضحة».

حبست تس أنفاسها وعلّقت مذهولة: «لا أصدق هذا!»

عبست آشلي وقالت: «ما الذي لا تصدّقينه؟ أن أسرته قد تحاول منعنا؟ هيا تس لقد قلت بنفسك للتو إن والد ماركو استخدم تحرياً خاصاً ليفتش عنا».

قالت تس بحماس: «لأنه كان قلقاً عليه. من المستحيل أن يكون ماركو قد أخبر والده عن وجهته. وأشك في أن يكون قد ذكر عطلة الرسم لأسرته، فحين أتى والده إلى المعرض ليبحث عنك، اتهمك باختطافه!».

ردّت آشلي لاهثة: «أنت تمزحين!»

أجابتها تس متجهمة: «لا، لست أمزح، فأفراد أسرته يظنون أنكما على علاقة».

أصبح من الصعب قراءة تعابير وجه آشلي بعد سماع ما قالته تس. للوهلة الأولى ظنت تس أنها شعرت بالخوف، لكن شيئاً غريباً بدا في تعابيرها، ثم قالت: «لا يمكنك أن تكوني جادة. بحق السماء تس، ماذا تظنين؟»

- إذاً، هذا ليس صحيحاً؟

- لا.

لكن آشلي لم تنظر وهي تنفي الموضوع، وتابعت: «يجب ألاّ تصدّقي كل ما تسمعينه».

قالت تس تدافع عن نفسها: «أنا أخبرك فقط فيما يفكّر فيه أقرباء ماركو».

وتمنّت ألاّ تسألها آشلي كيف علمت بكل هذه التفاصيل.

وفجأة قالت آشلي: «ماذا أفعل إن كان الصبي يعتقد أنه مغرم بي؟»

اتسعت عينا تس لهذا الكلام المفاجىء وسألتها بغضب: «تقصدين أنك على علاقة به؟»

رمقتها آشلي بنظرات ازدراء وقالت: «ألم أخبرك للتو أنني لست مهتمة بالأولاد؟ لكن هذا لا يعني أنّ ماركو يفتقر إلى معطيات أخرى».

ظهرت ابتسامة خفيفة عند زاوية شفتيها فأثارت شكوك تس من جديد.

- إنه متيم بي، لهذا أعتقد أن والده قلق عليه.

علّقت تس وقد انزعجت من تصرّف أختها:

- إذاً، ما الذي يجبرك على مرافقته في عطلة للرسم؟ بما أنك تدركين مشاعره تجاهك فيجب أن تبتعدي عن طريقه.

سخرت آشلي منها وقالت: «لماذا؟ لأن والده لا يوافق على الموضوع؟»

ردّدت تس بصلابة: «لأنه في السادسة عشرة فقط. آشلي، ما الذي تحاولين

فعله؟ أن تبعديه عن أسرته كلياً؟»

أجابتها آشلي: «هذا لن يحدث أبداً».

انحنت لتمسك كوب الشاي الذي وضعته على الأرض وأردفت:

- لا بد أنك تدركين أن ماركو أهم شخص في حياة والده. سنيور دي كاستيللي مطلّق وليس لديه أي نية في الزواج من جديد. لذا، ما من صبيّ غيره سيحمل اسم العائلة.

وكأنها لم تكن على علم بهذا! لكن آشلي كانت تنتظر منها أن تقول شيئاً آخر فسألتها سؤالاً منطقياً: «هل تعرفين السنيور دي كاستيللي؟»

لن تتوقع آشلي حتماً أن يكون كاستيللي قد أبدي أي اهتمام بها.

أجابتها أختها بما أخبرها به كاستيللي: «التقيته يوم عصر العنب السنة الماضية. إنه ضخم، أليس كذلك؟ أم أنك لم تلاحظي؟».

قالت تس: «إنه... جذاب».

رمقتها آشلي بنظرة ازدراء وقالت ساخرة: «جذاب. تس إنه ساحر، هل تعتقدين أنني كنت لأكترث بطموحات ماركو لو أن رايف دي كاستيللي أبدى أي اهتمام بي؟»

أنهت الشاي وحملت الكوب الفارغ إلى المطبخ بينما حاولت تس تقبّل جملتها الأخيرة. لكن لم تكن جملة آشلي هي التي أزعجتها بل ما لم تقله.

سألتها وهي تشعر بحاجة للتأكد من أنها أساءت الفهم: «ماذا تقصدين؟ ما علاقة السنيور دي كاستيللي بك؟»

أدارت آشلي وجهها نحو تس بنفاد صبر وردّت: «ألا يمكنك التخمين؟ آن لك أن تنضجي تس. ما هو هدفي من وراء ما يحصل برأيك؟»

غسلت كوب الشاي فيما أضافت: «لم أضيّع وقتي مع ماركو من أجل طموحاته الفنية. وإن أراد آل كاستيللي أن أغادر البلدة حالما يقفل المعرض أبوابه فسيكلفهم ذلك كثيراً، هذا كل ما في الأمر».

شعرت تس بصدمة كبيرة، وكل ما تمكنت من قوله هو: «أنت تعلمين إذاً أن المعرض سيقفل؟»

شعرت آشلي بالرضى وهي تقول: «بالطبع أعلم. أنا لست غبية فالمعرض لا يدرّ المال وسكوتولينو ليس رحوماً أبداً.

ابتلعت تس ريقها وهي تحاول استعادة قدرتها على التفكير: «وتظنين أن آل كاستيللي سيعوّضون عليك؟»

هزّت آشلي رأسها وقالت: «أنا متأكدة من هذا. أظن أنهم سيفعلون أي شيء ليبعدوني عن المنطقة. حين اقترحت قضاء الأسبوع في مشغل كارسو رافيللي لم أكن أعلم أن ماركو قرر إخفاء الموضوع عن أسرته، وهذا يفيدني أكثر. فوجئت لأنني لم ألقَ أي معارضة من قبل أسرته».

حدّقت تس إليها وقالت: «ألا تهتمين لأنهم كانوا قلقين على ماركو؟»

هزّت آشلي كتفيها وقالت: «أنا آسفة إن كنت قد تسببت بالقلق لأحدهم لكن الذنب ليس ذنبي. كما أنني لا أدين لهم بأي خدمة. حين أخذني سيلفيو إلى الڤيللا تصرّف جميع أفراد الأسرة كأنهم أرستقراطيون أما باقي الناس فمجرّد فلاحين! ودعيني أخبرك أن الڤيللا أشبه بقصر كبير».

- آشلي!

تحوّلت نظرات الرضى في عينيّ آشلي إلى استخفاف وقالت: «حسناً... إنها الحقيقة.. إنهم متعجرفون جداً. كلهم عدا ماركو، فقد انسجمنا معاً منذ البداية».

ابتسمت تستعيد الذكرى وتابعت: «أتى إلى المعرض في اليوم التالي ليراني».

- وأنت شجّعته.

- لم أكن مضطرة لذلك. أعتقد أنني أوّل شخص قدّر موهبته. والده لا يملك الوقت ليشجّعه وجدّته تعامله كطفل.

- إنه طفل فعلاً.

أجابتها آشلي باختصار: «إنه مراهق، هل تتصورين أنه لا يستطيع مغادرة المنزل من دون إذن ذويه؟»

- أنا متأكدة من أنك تبالغين.

- حقاً؟ أنت لا تعرفين شيئاً عن الموضوع. أنا متفاجئة لأن والد ماركو اتصل بك بنفسه، عادة ما يقوم مساعده بهذا.

علّقت تس وهي تحاول عدم التطرّق إلى علاقتهما بكاستيللي:

- لعله قلق كثيراً. أليس صحيحاً أن ماركو لم يبدِ أي اهتمام بالرسم قبل أن يقابلك؟

عبست آشلي وقالت: «هل هذا ما قاله والده؟ يبدو أنك تحدّثت إليه مطولاً. ماذا أخبرك أيضاً؟ هل ذكرني؟».

- هل يهمك ذلك؟

شعرت بالحزن بسبب علاقتها بكاستيللي لكنها أضافت: «ربما من الأفضل أن تتصلي بوالدتك، فهي قلقة عليك. أخبرتها أنك ستتصلين بها حالما تتمكنين من ذلك».

اتهمتها آشلي باشمئزاز: «لقد وشيت بي. ألم يكن باستطاعتك إبقاء شكوكك لنفسك؟»

- لا، لم أشِ بك، أخبرتها أنني أخطأت بشأن مكان إقامتك خلال العطلة. أنا لم أتهمك بشيء، مع أنني بصراحة لا أعرف لما فعلت هذا.

قالت آشلي على الفور وقد ارتاحت تعابير وجهها: «لأنك تحبينني».

وسحبت حقيبتها فيما أردفت: «من الجيد أن أعود إلى المنزل. سآخذ الآن حماماً بارداً».

هزّت تس رأسها وعلّقت: «ماذا بشأن الاتصال بوالدتك؟»

أجابتها آشلي بعدم اهتمام: «سأتصل بها لاحقاً. لما لا ترتدين ملابسك وتذهبي لإحضار الغداء؟»

غمغمت تس من بين أسنانها: «لأنني أريد الاستحمام أيضاً».

لكن سيكون عليها الانتظار بالطبع، فهذا حمام آشلي.

عندئذ فقط تذكرت الفوضى التي تسود في الشقة وزجاجة العصير الفارغة مع الكوبين على الطاولة. وبالكاد تذكرت ذلك حتى سمعت شهقة آشلي الغاضبة وهي تقول: «وما هذا بحق الجحيم؟»

بدا وجهها متورداً من الغضب حين سألتها: «من تراك استقبلت في شقتي؟ ولا تقولي لي إنك استعملت الكوبين لك وحدك فأنا أرى أيضاً بقايا بسكويت في صحنين وليس في واحد فقط».

١١ - أحلام مراهق

وصلت لوسيا دي كاستيللي إلى الڤيللا حوالى الساعة الحادية عشرة صباحاً. كان رايف في مكتبه حين دخلت والدته إلى الغرفة ثائرة وأعلنت بانتصار: «أعرف أين هما، وما يفعلانه. إنهما في ميلانو في منزل مدرّس رسم مبتدىء يدعى كارلو رافيللي. إنه يدير أحد مراكز تعليم الرسم حيث يدفع الناس مبلغاً معيناً من المال لتعلّم الرسم والإقامة».

وضع رايف قلمه جانباً ونظر إليها قائلاً: «أعرف ذلك».

حدقت لوسيا إليه وكأنها ترى شبحاً ورددّت: «أنت تعرف؟ كيف عرفت؟ ومنذ متى؟ إن كنت تخفي عني ذلك...»

قاطعها رايف بملل: «أعلم لأن ماركو وصل إلى المنزل منذ نصف ساعة. عاد هو ورفيقته إلى بيزا صباحاً. إنه في غرفته يفرغ حقائبه».

ارتخى فك لوسيا وتلمّست وراءها كرسياً تجلس عليه بإرهاق ثم سألته غير مصدّقة:

- بهذه البساطة؟ عاد الصبي إلى المنزل ولم تجد ما تقول له؟ لقد تمرّد عليك رايف، عصى أوامرنا. لن تسمح له بأن ينجو بفعلته، أليس كذلك؟

أجابها رايف بتهذيب: «أنا لا أنوي تكسير العصا عليه، إن كان هذا ما تتوقعينه. هل فكرت أننا ربما قسونا عليه كثيراً في الماضي لذا شعر بضرورة التمرد علينا؟»

أغاظها كلامه فردّت: «إنه مجرد صبي رايف، في سنه كنت لا تزال في المدرسة».

www.elromancia.com

ذكرها رايف: «وكذلك ماركو. صحيح أني رفضت أن يتلقى علومه في روما مثلي لكن هذا لا يعني أن المدرسة المحلية التي يقصدها غير مناسبة».

لوت لوسيا شفتيها وقالت: «هل تعني أنك لا تنوي السماح له بأن يصبح كاهناً؟ أنت تعرف أن هذا حلمي وأنت تضيّعه من بين يديك».

أجابها رايف باختصار: «ماما.. لا يمكنني بصراحة رؤية ماركو يتخلى عن حياة اللهو من أجل الكهنوت».

تمتمت والدته: «حسناً، ليس بعد الآن على ما يبدو. وماذا عن تلك المرأة التي هرب برفقتها؟ هل ستتركها تنجو بفعلتها أيضاً؟»

أطلقت لوسيا صوتاً يعبّر عن سخطها، وقبل أن يجيبها أضافت: «نحن لا نعلم إلى أي حدٍّ تماديا، أليس كذلك؟ حضور صفوف الرسم في منزل فنانٍ يخفي العديد من الخطايا».

شعر رايف بالغضب فرمى بقلمه على المكتب وقال: «أعلم ذلك. تأكدي من أنني لن أسمح للآنسة دانييل بأن تنجو بفعلتها أبداً. كما لا أنوي تسهيل الأمور عليها».

وسكت قليلاً ثم تابع: «لا بدّ أنها تتوقع حضوري إلى المعرض وأنا أشتعل غضباً، لكنني بدلاً من هذا لن أقدم على أي تصرّف في اليومين القادمين. سيكون من الجيد أن... أن تشعر بالقلق لبعض الوقت. بعدئذ، وحين أصبح جاهزاً سأتخذ تدابير أخرى».

أطلقت لوسيا شتيمة وقالت: «وما هي تلك التدابير بالضبط؟»

أخذ رايف نفساً عميقاً ثم استرخى في مقعده قبل أن يقول: «لا أعلم بعد. حاولت أن أسأل نفسي إلى أين تريد الآنسة دانييل أن تصل؟ وقد أصبح هذا السؤال وجيهاً الآن بعد أن عرفنا أنها لم تكن تتوق لإقامة علاقة عاطفية مع ماركو».

زمت لوسيا شفتيها مجدداً: «وكيف لك أن تعلم أنها لم... أرفض استخدام

تعابيرك المقززة.. كيف سنعلم انها لم تغوه؟».

تنهد رايف وقال: «نحن لا نعلم ولكن.. يبدو ماركو محبطاً، وكأنه.. كيف أتجرأ وأقولها؟ قد خاب أمله في الحب».

علقت لوسيا بحزم: «حسناً آمل أن تكون محقاً وأن الآنسة دانييل تنوي تركه وشانه من الآن وصاعداً».

قال رايف بتذمر: «أنا لم أقل ذلك. قلت فقط إنني لا أعتقد أنها أقامت علاقة مع ماركو بعد».

صُدمت لوسيا وقالت: «بعد؟ لا يمكنك أن تتصور أن شيئاً كهذا قد يحدث، رافاييل. إنه في المنزل آمن وسليم. ما الذي بإمكانها فعله أكثر؟»

علّق رايف بدهاء: «أعتقد أن هذا ما علينا اكتشافه، إذ لا أعتقد أنها أسمعتنا كلمتها الأخيرة. لهذا، قلت إنني أنوي إعطاءها بعض الوقت لتفكّر في خياراتها. من الأفضل أن نعرف ما يفكّر فيه أعداؤنا، فالهجوم ليس الطريقة المناسبة دوماً للتغلب عليهم».

اضطرّت لوسيا للإذعان بأن رايف محق. وقالت من دون أن تلاحظ أن قسمات وجه ابنها تصلّبت: «ذهبت إلى المعرض بنفسي، أردت التحدّث إلى شقيقتها، لكنها لم تكن تملك أيّ معلومات جديدة. أصرّت على أنها لا تعلم أين هما، هل تصدّق ذلك؟ على أيّ حال، تظاهرت بأنني حزنت ودعتني لأرتاح في المكتب».

زم رايف فمه وقال: «أحقاً؟»

قطبت لوسيا حاجبيها وقالت: «نعم. لا تنظر إليّ هكذا رافاييل، فلدي وسائلي الخاصة كما أظنك أصبحت تعلم. على أيّ حال، تركتني تلك الفتاة الغبية بمفردي ما أعطاني فرصة لأبحث في الأدراج».

لمعت عيناها وتابعت: «وجدت بطاقة لرافيللي بين بطاقات أخرى لمعاهد تعليم الرسم في مناطق مختلفة. لذا، ذهبت إلى بيزا وقابلت السنيور ڤيرديسي،

وقام هو بمهمة البحث».

تنفس رايف بصعوبة وسأل: «أخذت بطاقته إذاً؟»

قالت لوسيا بابتهاج: «في الواقع، أخذت عدة بطاقات. إن تلك البطاقات تعود على الأرجح لأوغوستين سكوتولينو وليس للآنسة دانييل، لذا لا تعترض على ما قمت به، ولا تنظر إليّ هكذا».

تصوّر رايف شعور تس إن علمت بفقدان تلك البطاقات وأجاب والدته بصوت منخفض:

- مهما كان السبب، فقد قمت بسرقة تلك البطاقات. لقد استغليت طيبة تس وهربت كاللصوص.

علّقت والدته على الفور: «كيف علمت أني لم أضع البطاقات في حقيبتي وأغادر كأي شخص آخر؟».

لام رايف نفسه على تسرّعه وقال: «لأنني تحدّثت إلى تس، وأخبرتني أنك زرتها في المعرض، قالت إنك بدوت حزينة ولكنها لا تعرفك مثلي».

نظرت لوسيا إليه بنفاد صبر وقالت: «لا تكن مزعجاً. على أي حال، يبدو أنك أنشأت صداقة مع تلك المرأة».

بدا ازدراؤها واضحاً وسألت: «هل نسيت أن أختها هي التي خطفت ابنك؟»

أجابها باختصار: «أظن أننا نعرف أن أحداً لم يخطف ماركو. وكما قلت من قبل، تس لا تشبه أختها أبداً».

لاحظ رايف أنها تستغل علاقته بتس كي تخفف من لومه لها، إذ قالت: «كيف تعرف أنها لا تشبه أختها؟ لأنها قالت ذلك؟»

أجابها رايف بصوت أجش وهو يشعر بوخز الذنب لنفاقه: «لأنها إنسانة مهذبة. على أي حال، نحن لم نكن نتكلّم عن تس بل عن تصرّفك، أعتقد أنك تدينين لها باعتذار».

وكما توقع رايف لم تطل لوسيا البقاء بعد اقتراحه هذا. فهي نادراً ما تعتذر لأي كان. تنهد رايف وهو يقاوم الاعتراف بأن رحيل والدته أحيا شعوره بالذنب من جديد، فرغم الابتهاج الذي تملّكه حين عاد إلى الڤيللا أمس فإن إحساسه بالخطأ أطل برأسه سريعاً.

إنه مضطر لمواجهة حقيقة ما فعله بالأمس. لا جدوى من الادعاء أنه لم يشأ معانقة تس منذ اللحظة التي فتحت له الباب، فقد كان هذا كل ما جال في خاطره.

أدرك أنه كان قاسياً جداً عليها في لقائهما الأوّل. في البدء، ظن أنها آشلي... ولاحقاً أدرك أنها تشكل خطراً على راحة باله. كانت تس أول امرأة تشغله حتى أنه لم يتمكن من إخراجها من أفكاره.

لقد فكّر فيها وحلم بها أحلاماً كتلك التي لم يرها سوى في سن المراهقة. أقرّ بجفاء أنه أسوأ حالاً من ماركو فهو متلهّف إلى امرأة بالكاد يعرفها. إلا أن الأمر لم يبدُ هكذا وهو برفقتها فقد شعر بإلفة بينهما لم يعرفها مع أي شخص آخر. هواجسه جعلته يخدع نفسه ويعتقد أنها أرادته أيضاً. لكن رغم عناقهما كان يجدر به أن يعرف ما تشعر به حياله وأن يتحلى بمزيد من المنطق ليبقى بعيداً عن الإغراءات.

***

شعرت آشلي بالغضب لأن تس لم تخبرها من هو الرجل الذي كان برفقتها بالأمس واندفعت إلى الحمام وهي تهدد بالانتقام منها على ذلك.

حين خرجت آشلي من الحمام، أخذت تس حماماً أيضاً، ثم ارتدت ملابسها وخرجت لإحضار الطعام كما اقترحت آشلي. لم تذكر المعرض أبداً، وإن أرادت أختها أن تفتحه اليوم فهذا شأنها. فبعد الطريقة التي تصرفت بها، لم تعد تس تشعر بالمسؤولية تجاهها.

حين عادت إلى الشقة توقعت أن تكون آشلي قد وضّبت لها حقائبها. وكانت

قد عوّدت نفسها على فكرة أنها لن ترى كاستيللي مجدداً.

ساورها بعض الخوف وهي تدخل إلى الشقة. فقد يأتي كاستيللي إلى الشقة إذا وجد المعرض مقفلاً، إذ سيكون متلهفاً لمواجهة أختها ولومها على ما فعلته.

كانت آشلي لا تزال في الشقة إلا أنها لم ترَ كاستيللي كما لم تر أي علامات تدلّ على أنه أتى في غيابها. لكنها فوجئت بتغيّر تصرّفات آشلي معها، إذ طلبت منها البقاء لبضعة أيام إضافية.

وبينما راحت تس تحضّر غداءً خفيفاً قالت آشلي وهي تجلس على كرسي:

- كنت متهورة، نسيت أنك تملكين حياةً خاصة، أتصوّر أنني شعرت بالغيرة. فبينما كنت ألعب دور حاضنة أطفال لمراهق عاشق، كنت أنت تقضين وقتك مع إيطالي جذاب.

أجفلت تس، فقد كان الوصف مناسباً جداً لكاستيللي. قالت وهي تُخرج الزبدة من البراد لتضعها على الطاولة: «هذا ليس مهماً».

سكبت آشلي السلطة، وأضافت شرائح البطيخ واللحم إلى صحنها، ثم رفعت رأسها وقالت: «هذا لذيذ تس، عليّ الاعتراف بأنني أتضوّر جوعاً.. لقد قدموا لنا القهوة والخبز على الطائرة. لكنك تعلمين كيف يكون الأكل على الطائرات عادة».

تمكنت تس من رسم ابتسامة صغيرة على وجهها، لم تفهم ما الذي جعل آشلي تغير تصرفاتها معها، لكنها شعرت بالارتياب من هذا التغيير. حصل شيء أثناء غيابها... إما أنّ كاستيللي كان هنا وشعرت آشلي أنها تحتاج إلى من يحميها، وإما أنها اكتشفت هوية رفيق تس ليلة أمس وهي تنوي استخدام ذلك لمصلحتها.

تمتمت تس بعد دقائق: «لست واثقة من أن بقائي هنا فكرة سديدة. أعني أن لديك غرفة نوم واحدة والشقة لا تتسع إلا لشخص واحد فقط».

ردّت آشلي بسرعة: «إن سريري مزدوج».

زمت تس شفتيها، فقد جذبتها إغراءات آشلي للبقاء بضعة أيام إضافية. لكنها تخدع نفسها إن ظنت أن رؤية كاستيللي مجدداً ستفيدها. ألا يكفي ما سببته لنفسها من ألم حتى الآن؟ هل هي حقاً مستعدة للتورط في مخططات آشلي التي لا تعلم عنها شيئاً؟

وأخيراً شرعت تقول: «إنه... من اللطف أن تطلبي مني البقاء...»

لكن آشلي قاطعتها واحتجّت: «لن ترفضي طلبي أليس كذلك؟ أرجوك، عليك أن تعطيني فرصة لأعوّضك عمّا فعلته من أجلي».

هزّت رأسها: «في الواقع، عليّ العودة إلى المدرسة يوم الخميس المقبل. ولديّ العديد من الأمور التي يتوجب عليّ إنجازها حين أصل إلى المنزل كترتيب ثيابي وغسل بعضها وغير ذلك».

أصرّت آشلي: «إذاً، ابقي حتى يوم الثلاثاء. يمكنك غسل ثيابك في أي وقت».

- آشلي...

تغيرت نبرة آشلي الآن ونظرت تس إليها بحذر: «عليك أن تبقي. أنا بحاجة إليك، لا يمكنني تدبّر هذه الأمور كلها لوحدي».

نبهتها تس من دون إظهار ودّها: «سبق وتدبّرت أموراً كثيرة بمفردك. لا أريد التورّط في ما تقومين به آش. من جهة أخرى، أنا وأنت لا تجمعنا تلك الروابط القوية».

أجابتها آشلي بعبوس: «ولن تجمعنا أبداً إن لم تسمحي بحدوث ذلك. ماذا دهاك تس؟ أقترح عليك متابعة عطلتك وأنت ترفضين».

- أنا آسفة...

أحنت آشلي كتفيها ونظرت إليها باكتئاب وقالت: «حسناً... حسناً، ثمة أسباب أخرى تدفعني كي أطلب منك البقاء أكثر. اتصلت بوالدتي بينما كنت خارجاً فاقترحت عليّ أن تأتي لزيارتي، لكنني لم أشأ أن تأتي الآن. يا إلهي،

يمكنك تفهّم موقفي بالتأكيد. لذا أخبرتها أنك ستبقين مدة أطول وأن المكان عندي لا يتسع لأكثر من شخصين».

- آشلي!

- حسناً، هذا كل ما تمكنت من التفكير فيه. إن عدت الآن إلى انكلترا، فستكتشف أمري بسهولة.

رمشت تس بعينيها: «كيف يمكنها ذلك؟ فنحن لا نرى بعضنا أبداً».

مدّت آشلي يديها بحركة معبّرة عمّا في داخلها: «لا أعلم. لا أستبعد أن تتحقق إن كنت قد عدت أم لا، خاصة أنك اتصلت بها لتسألي عني».

سألتها تس وقد تذكرت اتهامات أندريا: «ذكّرتني الآن، هل قلته لأمك إنني أنا من شجّعك على العمل في إيطاليا؟»

هزّت آشلي كتفيها: «ربما».

لكن حين رأت علامات الاستهجان على وجه تس بررت نفسها: «تعلمين كيف هي تلك المرأة العجوز، تريد دائماً أن تعلم كل ما أقوم به. بدت فكرة جيدة أن أخبرها أنك تدعمينني».

هزت تس رأسها: «أنت تدهشينني، أنت حقاً تدهشينني، ألا تفكرين إلاّ بنفسك؟»

- هيا تس، أنا لست سيئة إلى هذه الدرجة، أرجوك قولي إنك لن تغادري.

- لكن أمك لن تتصل لتسأل عني. إنها تعلم أنك عدت الآن.

- نعم، لكن الشكوك لا تزال تساورها. اضطررت إلى القول إن هاتفي الخلوي كان معطلاً لأبرر سبب عدم تمكنها من الاتصال بي.

- هل قلت لها أين كنت؟ كي أكون على علم إن سألتني عن الموضوع فقط.

- في ڤينا، قلت لها إن السنيور سكوتولينو طلب مني تفقد أحد فنانيه.

حدّقت تس إلى أختها غير مصدّقة: «يسهل عليك قول الأكاذيب، أليس كذلك؟»

- أقول أوّل ما يخطر في بالي، هذا كل ما في الأمر. وكما قلت لك، لا يمكنني تحمل مجيء أمي الآن إلى هنا.

- وهل تعتقدين حقاً أن بضعة أيام إضافية ستشكل فارقاً؟

- سأفكر في شيء آخر في ما بعد. يمكنني أن أقول لها إنني سأفقد وظيفتي قريباً. إن أخبرتها أني سأعود إلى إنكلترا قريباً، فلن تصرف المال على الرحلة.

- أنت فعلاً مجردة من المبادىء الأخلاقية كلها.

هزّت آشلي كتفيها وقالت: «إنّ تصرّفاتي عملية. لكنني لا أتوقع منك أن تفهمي ذلك».

بل تمكنت تس من فهمها... أحنت رأسها فوق طبق الطعام أمامها، وفكّرت في ما حصل في الأمس. علمت أنها يجب ألا تثق بآشلي. عليها أن تستقل الطائرة التالية إلى لندن بإمان، فغباء منها أن تفكر بالتأثير إيجاباً على أختها إن بقيت برفقتها. ولن يسامحها كاستيللي أبداً إن أصبحت جزء من خدعة آشلي.

إذاً، لما لا تزال تفكّر في عرض أختها؟ فآشلي يمكنها الاعتناء بنفسها، وكاستيللي لا يحتاج بالتأكيد لعطفها، فهو لن يهتم لأيٍ منهما بعد أن تخبره بما يجول في رأس آشلي.

فقدت شهيتها وأبعدت صحنها جانباً ثم قالت: «أنا آسفة. لا أريد التورط في مشاكلك».

أكدّت لها آشلي: «لن تتورطي، ولما تفعلين؟ فسنيور دي كاستيللي سيودّ رؤيتي أنا، وليس أنت. سيأتي إلى المعرض غداً على الأرجح. ويمكنك في ذلك الوقت أن تكوني على الشاطىء حتى أتفق معه».

تنهدت تس: «آشلي».

قالت الفتاة الشابة بإقناع: «حسناً، قولي إنك ستبقين حتى الاثنين على الأقل. ما الفرق إذا بقيت قليلاً بعد؟ ستقدمين لي خدمة كبيرة ولن تتأذي.

افرضي أنني تأخرت في العودة وأنك حجزت في الرحلة المتوجهة إلى لندن، ألن تؤجلي سفرك وتبقي أياماً إضافية؟ عطلة نهاية أسبوع واحدة فقط، أرجوك. بعدئذ، يمكنك العودة إلى حياتك القديمة بالمملة في باكستون».

اعترضت تس على تسمية حياتها بالمملة. فهي حياة آمنة ومنظمة على الأقل، كما ذكرت نفسها بجزم. بدت هذه الأيام القليلة في بورتو سان ميشيل مشوّقة لكنها تفضّل الأمان والهدوء، أليس كذلك؟

١٢ - دعوة مريبة

في المساء اضطرت تس إلى حجز مقعد على متن رحلة يوم الثلاثاء، لأنها لم تستطع إيجاد مكان شاغر قبل ذلك. رفضت التفكير بما قد تفعله إن لم تستطع الرحيل قبل يوم الخميس.

أما آشلي فشعرت بالفرح، رغم أن فرحها تبدّد مع نهاية يوم الاثنين عندما لم تسمع أيّ خبر من ماركو أو من والده. ثارت في الشقة بعد إقفال المعرض وقد احمر وجهها من الإحباط، وراحت تقول بغضب: «يحاولون إبقاءه بعيداً. حسناً يجب ألا يعتقدوا أنهم سينجحون بفعلتهم، إذ سأذهب إلى الڤيللا إن اضطررت لهذا. يحق لماركو رؤية من يريد».

علّقت تس بدهاء: «لكنك لا تريدين مقابلة ماركو، أليس كذلك؟ برأيي، أنت محظوظة لأن والده لم يتصل بالشرطة، فإبعاد شخص قاصر عن عائلته يعتبر مخالفة هنا تماماً كما في إنكلترا».

لم تشأ آشلي أن تستمع إلى كلام تس فقالت: «هذا هراء، ماركو رافقني بكامل إرادته، ووالده يعلم ذلك».

- هذا لا يغيّر شيئاً.

- حسناً، حسناً، لعلك محقة. لكن هذا لا يغير ما يشعر به ماركو نحوي.

عبست آشلي وراحت تفكر بما ستفعله: «يجب أن أراه، بطريقة ما... ربما إن اتصلت أنت بوالده..»

ردّت تس بصلابة: «لا! قلت لك إني لا أريد التورط في مشاكلك».

نظرت آشلي إليها مستغيثة: «ولن تفعلي. هيا تس.. كل ما عليك فعله هو

www.elromancia.com

أن تطلبي منه القدوم إلى المعرض. وسأتسلّم زمام الأمور هناك».

مدت يديها وأردفت: «أنت تدينين لي بهذا. كان من المفترض أن ترحلي لكنك ما زلت هنا تستمتعين بضيافتي. كان بإمكاني رميك خارجاً».

- لا...

وفجأة سمعت طرقاً على الباب جعل جسمها وفمها يجف وقالت: «أعتقد.. أعتقد أن لديك زائر».

- وأخيراً.

بالكاد تمكنت تس من الدخول إلى غرفة النوم قبل أن تفتح آشلي الباب. حاولت ألا تستمع لكنها لم تستطع إنكار رغبتها الشديدة في سماع صوت كاستيللي مجدداً.

لكن الصوت كان لشخص أصغر سناً، فهدأت تس قليلاً وفكّرت بكآبة في أنه ماركو بالتأكيد. إذاً، سيستغرق حديثه مع آشلي وقتاً طويلاً.

جلست على حافة السرير متوقعة الانتظار لوقت طويل لكن بعد لحظات انفتح باب الغرفة ودخلت آشلي تحمل مغلفاً أبيض. قالت باختصار وهي ترميه إلى أختها: «إنه لك، لقد أحضره ساعي البريد. قولي لي لما يرغب السنيور دي كاستيللي بالكتابة إليك؟»

شعرت تس بالقلق وقالت: «لا أعلم».

وهي حقاً لا تعلم، لكنها شكت في أن تصدّقها آشلي.

قالت آشلي بنزق وهي لا تعي تردد تس: «افتحيه».

لم تكن آشلي تعلم أن الرسالة ملأت تس بمزيج من التوقع والفزع. ظنت أنها تمكنت من ضبط مشاعرها نحو كاستيللي، لكن المشاعر التي تملكتها وهي تفتح هذا المغلف برهنت أنها لم تفعل بعد.

أصرّت آشلي: «هيا بسرعة فهو على الأرجح سيتكلّم عني. أريد أن أعرف الأكاذيب التي سيقولونها عني. وكيف علموا أنك لا تزالين هنا؟»

ردّت تس تجيب عن تساؤل آشلي: «حسناً أنا لم أخبرهم».

ومدّت إصبعاً متوتراً إلى المغلف وفتحته وهي تضيف: «لا أملك أي فكرة. لما.. لما قد يرسل لي كاستيللي رسالة».

فقدت آشلي صبرها وقالت: «هيا افتحيه».

فعلت تس ذلك بيدين مرتجفتين فيما قالت أختها: «حسناً ماذا يقول؟»

قرأت تس الكلمات مرة ثم فعلت ذلك مجدداً وهي لا تصدق ما تقرأه ثم قالت بضعف:

- إننا... نحن مدعوتان على العشاء في ڤيللا كاستيللي غداً مساءً.

لم تكلف آشلي نفسها عناء ضبط أعصابها، بل انحنت فوق كتف تس تقرأ الرسالة بنفسها ثم قالت: «حقاً! ماذا تقولين؟ دعوة إلى الڤيللا! قلت لك إنهم سيودون رؤيتي مجدداً».

هزّت تس رأسها: «حسناً، أنا لن أتمكن من الذهاب».

قطبت آشلي حاجبيها وسألت: «لم لا؟»

أجابتها تس بثبات: «لأنني سأسافر غداً. فحسب وكالة السفر، سأتمكن من إيجاد مقعد على متن الطائرة بعد ظهر الغد...»

حدّقت آشلي إليها غير مصدقة: «لا يمكنك أن تكوني جادة. إن كنت تظنين أني سأخسر فرصتي للقاء والد ماركو لأنك تظنين أنّ العودة إلى عملك التافه في إنكلترا أكثر أهمية فأنت مخطئة».

احتجت تس تدافع عن نفسها: «أنا لا أمنعك من الذهاب بمفردك».

- لقد أرسل الدعوة لك، فكيف سيبدو الأمر إن لم تحضري؟

قالت تس في سرّها إنها لا تكترث، وإن التفكير بالذهاب إلى الڤيللا أشعرها بالخوف.

ردّدت مجدداً: «لا يمكنني الذهاب، علي العودة إلى إنكلترا. لن أخاطر بخسارة وظيفتي».

شعرت آشلي باليأس وقالت تهددها: «إن رحلت فلن أسامحك أبداً. سألحق الأذى بنفسي وأنا واثقة من أن أمي ستعلم أنك الملامة».

قالت تس بكآبة وقد شعرت بالضيق إلى حد جعلها لا تكترث بجرح مشاعر أختها:

- افعلي ذلك آشلي، إن كنت تظنين أني سأرافقك إلى الڤيللا وأنا أعلم أنك ستطلبين المال فانسي الأمر.

- تس!

وتوقفت آشلي عن الإلحاح حين سمعت رنين هاتفها الخلوي.

سمعتها تس تقول بحماس: «ماركو؟ آه، آه نعم.. فهمت نعم نعم إنها هنا».

عندما وصلت تس إلى باب الغرفة كانت آشلي قد عادت أيضاً وهمست: «إنه والد ماركو، إن فشّلت الأمر، فسأجعلك تندمين على ذلك».

عبست تس في وجهها وهي تأخذ الهاتف. لكن يديها كانتا ترتجفان فظنت آشلي أن السبب هو التهديد الذي وجهته لها.

- ألو؟

بعدئذ، أغلقت الباب في وجه أختها رافضة أن تدعها تستمع إلى حديثها.

- سنيور دي كاستيللي؟ ماذا تريد؟

مازحها بتهذيب: «عزيزتي، أبهذه الطريقة ترحبين بحبيبك؟»

شعرت بتردد وبرغبة في إقفال الخط. لا يحق له أن يتصل بها وأن يرسل دعوة لها إلى الڤيللا.

قالت بإيجاز وقد قررت أن الوقت مناسب لتقول له إنها لن تقبل دعوته:

- لقد تلقيت دعوتك. لكني آسفة، علي العودة إلى إنكلترا غداً.

- أنت تمزحين!

بدا صوته هادئاً ومألوفاً جداً ما جعلها تستعيد ذكريات أرادت محوها من ذاكرتها وتابع: «عزيزتي، أريد رؤيتك مجدداً. لا تقولي إنك لا ترغبين في رؤيتي

أيضاً».

خرجت أنفاس تس متسارعة، وقالت وهي تحاول جاهدة إبقاء صوتها ثابتاً: «أعتقد أن آشلي هي من تريد رؤيته و... وهي أيضاً تود ذلك. لذا، لا بأس. أنا... لا أريد أن أتدخل. لا علاقة لي بالأمر. وعليّ العودة إلى إنكلترا. أنا... أنا آسفة إن كان ذلك يعطّل مخططاتك لكنني أظن أن هذا هو الحل الأفضل، أليس كذلك؟»

تنهّد كاستيللي وقال: «لا يمكنني أن أصدق أنك نسيت الوقت الذي أمضيناه معاً».

أجابته تس وقد بدأت يداها تتعرّقان للذكرى: «لم يكن من المفترض حصول ذلك».

بدا آسفاً وهو يقول: «أحقاً؟ أنا لا أعتقد ذلك. أذكر كل دقيقة أمضيناها معاً، عزيزتي. وكيف شعرت حين عانقتك...»

- توقّف!

لم تستطع تس سماع المزيد وهي تعلم أنه يكذب. الأمر مجرّد خدعة منه لتوافق على اصطحاب آشلي إلى الڤيللا ثم إعادتها إلى الشقة بعد أن يهينها ويحطمها.

- أنا... ما من عهود بيننا. لقد استمتعنا بوقتنا ولكن هذا لا يعني شيئاً وأنت تعلم ذلك.

بدا صوته أجش وهو يقول: «أنت تجرحينني».

وفكّرت تس في أنه لم يتوقع أن تفهم خدعته وتابع يقول: «نحن لم نتفق على شيء كما أذكر. كل ما قلته لك هو إني لست مستعداً لإقامة علاقة تنتهي مع العطلة».

أثار مشاعرها لكنها رفضت السماح له بإقناعها بأن الوقت الذي أمضياه معاً يعني الكثير له. فهو لم يتصل بها منذ ثلاثة أيام.

- على أي حال، أنا أعلم أنك تحاول استغلالي لتصل إلى آشلي.

تابع كاستيللي وكأنه لم يسمعها: «لعلك تشعرين بالإحباط لأنك تواجهين مشكلة في إيجاد حجز للعودة إلى انكلترا».

سألته: «كيف عرفت ذلك؟»

لكنه لم يجبها بل قال: «تخشين ألاّ تصلي في الموعد المحدد لبدء الفصل الدراسي الجديد. أضمن لك شخصياً أنك إن رافقت أختك إلى الڤيللا غداً فستتمكنين من السفر في اليوم التالي».

هزّها كلامه بشدة، فهي لن تسمح له أن يتحكّم بها بهذا الشكل.

- لا!

أصبح صوته أكثر قسوة: «حسناً..»

ثم أردف وقد غدت نبرة صوته خالية تماماً من أي تعبير:

- إن أصريت على موقفك فستجبريني على اتخاذ قرارات أكثر قسوة.

وأخذ نفساً عميقاً ثم قال: «إن لم تقبلي دعوتي، فلن تتركي أمامي خياراً سوى الاتصال بالشرطة».

وفي الساعة السابعة والنصف من مساء اليوم التالي كانت سيارة ليموزين سوداء تنتظرهما أمام المبنى. فكّرت تس في أن تجادله في الأمس وتقول له إن آشلي تملك سيارة، ويمكنهما الذهاب بمفردهما إلى الڤيللا، لكنها قررت ألاّ تتعب نفسها. لما قد تفعل ذلك؟ فمهما قالت سيفعل كاستيللي ما يريده. ولأول مرة، بدأت ترى ما تواجهه آشلي.

ولا يعني هذا أنها تسامح أختها على تورطها في هذه المسألة أو أنها تصدّق ما قالته عن أن كاستيللي يستحق ما يصيبه من مآسٍ. لكن آشلي بدت محقة في أمر واحد وهو أن آل كاستيللي يضعون القوانين بأنفسهم. ونظراً لثقة آشلي بنفسها بدا لها الوضع معقداً. بدت آشلي سعيدة حين أخبرتها تس أنها سترافقها إلى الڤيللا. ولم تكترث للتفاصيل الغامضة وتهديد كاستيللي إن لم ينفذا أوامره.

حين أخبرتها تس بمخاوفها وشكوكها قالت آشلي: «لن يبلّغ الشرطة

بالتأكيد».

لكن خوفاً من أن تعود وتغير رأيها أضافت: «حسناً، ربما يفعل. أتصور أنه علينا ألا نفسح له المجال لذلك».

وهكذا، أمضت آشلي اليوم التالي تبحث عن فستان مناسب ترتديه في المساء. واقترحت على تس أن تفعل مثلها لكن تس رفضت إضاعة وقتها ومالها من أجل تلك المناسبة.

كانت مقتنعة بأن هذه الأمسية ستتحول إلى كارثة كبيرة. فلما تتعب نفسها بشراء فستان مميز؟

لكن، حين بدأت تضع الظلال البرونزية على عينيها تمنت لو قبلت اقتراح آشلي، فقد بدت أختها واثقة من نفسها في ذلك الثوب الأبيض الضيق الذي أظهرها متألقة، طويلة، نحيفة وجميلة ما جعل تس تشعر وكأنها مجرد ظل بجانبها.

تقبّلت تس أخيراً فكرة أنها لن تتمكن من منافسة جمال أختها. ومع أنها ارتدت فستاناً أسود ضيقاً إلاّ أنها ظلت تشعر بتفوّق آشلي. بدت ساقاها سمراوين جميلتين لكنهما لا تقارنان بساقيّ آشلي الطويلتين. وبينما كان شعر آشلي ناعماً ومصففاً بدا شعر تس أشقر مجعداً.

كانت الڤيللا تبعد حوالى ثلاثين كيلومتراً عن شقة آشلي. ورغم اعتقادها أنها تحضّرت نفسياً لرؤية الڤيللا إلا أن ڤيللا دي كاستيللي بدت أفخم مما تصورت.

سألتها آشلي بصوت منخفض: «ما رأيك؟»

سارت السيارة بين أشجار السرو والدفلى فيما امتدت حقول العنب أمام ناظريهما.

قالت تس وهي تدرك ضعف تعبير كلماتها: «إنها رائعة ألا تظنين ذلك؟»

بدأ قلق تس يزداد مع الوقت، فجمال المكان والجو كله جعلاها تشعر

بالخوف. ورغم تشجيع آشلي لها إلاّ أن ذلك لم يحدث أي تغيير في مشاعرها.

أشارت آشلي وقد اقتربتا من الفيللا: «على تلك الشرفة بجانب المنزل تناولت العصير مع ماركو».

تنهدت آشلي وتابعت وهي ترفع كتفيها: «إنه لطيف على طريقته الخاصة. أتعلمين؟ سأعتاد على العيش هكذا».

ألقت تس نظرة قلقة عليها وقالت: «هذا ليس سبب قدومنا».

-يمكنني على الأقل أن أحلم بذلك. على أي حال، أظنني سأمل هذه الحياة مع الوقت، لكن مبلغاً من المال سيفيدني.

هزّت تس رأسها وقد أرهبها هذا الموقف. شعرت أنها ستواجه ثلاثة أو أربعة أشخاص، لكلٍ منهم طلباته.

ما هو شعور ماركو يا ترى حيال تدخل والده في أموره الخاصة؟ أي نوع من الاستقبال لاق حين وصل إلى المنزل؟ هل ستكون السنيورا دي كاستيللي حاضرة تراقب المجريات بعينين حاقدتين؟ وهل أخبرت ابنها عن زيارتها إلى المعرض؟ أم يفترض بتس أن تتصرف وكأنها لم ترَ تلك المرأة من قبل؟

بدأت السيارة تخفف سرعتها، فشعرت تس أنها غير مستعدة أبداً للمواجهة وتمنت لأول مرة في حياتها لو أنها تشبه آشلي فقد كانت تنتظر بحماس تلك المواجهة مع كاستيللي.

حالما ترجلت تس من السيارة لاحظت التألق والأناقة. كما أعجبت بالجدران البيضاء، والشرفة الواسعة المستطيلة الشكل التي تحيط بها سلال مليئة بالأزهار.

عندما وصلتا، استقبلهما خادمٌ رافقهما إلى الداخل، ثم تمتم معتذراً وتركهما ليعلم صاحب المنزل بوصولهما. وعادت تس تتساءل ما الذي أجبرها على القدوم إلى هنا.

إنه منزل رجل غني، كما فكّرت تس بجفاء، وكأنها لم تكن تعلم ذلك من

قبل. ألهذا السبب دُعيت آشلي إلى هنا؟ لأن كاستيللي أراد إخافتها بثروته؟

لقد أتت إلى هنا الليلة بسبب إصراره. وبدلاً من أن تسافر إلى إنكلترا وتعود إلى حياتها المألوفة والآمنة ها هي تقف هنا لتنتظر وقوع الفأس على رأسها.

سمعت وقع خطوات فأدارت وجهها تلقائياً، لكن القادم لم يكن كاستيللي، بل شاب يصغره كثيراً في السن. بدا طويلاً ونحيلاً وأدركت على الفور أنه ماركو لأنه يشبه والده كثيراً.

تقدّمت آشلي لملاقاته حالما وصل إلى الردهة: «مرحباً».

أدركت أنه لا يبدو مسروراً برؤيتها فأردفت: «يا له من منزل رائع. لم أكن أعلم أنه... ساحرٌ هكذا».

ابتسم ماركو وقال: «أحقاً لم تعلمي ذلك من قبل؟»

واختفت ابتسامته بسرعة حتى أن تس بالكاد رأتها ثم التفت إليها ومد يده ليصافحها مضيفاً:

- لا بد أنك الآنسة دانييل الثانية. طلب مني والدي أن آتي لمقابلتك. للأسف اضطر للرد على اتصال مهم، لكنه سينضم إلينا قريباً.

سلّمت تس عليه وقالت: «أنت ماركو أليس كذلك؟ أنت تشبه والدك كثيراً».

أما آشلي فلم يعجبها أن يتم تجاهلها فقالت وهي تمرر ذراعها تحت ذراعه: «بالطبع إنه ماركو».

ثم تابعت لتظهر الإلفة بينهما: «هل أنت بخير عزيزي؟ سمعت أنك لم تخبر والدك عن الرحلة».

نظر ماركو إليها للحظة وقد ارتسم الفضول على وجهه، ثم قال بتهذيب وهو يبعد ذراعه عن ذراعها:

- هلاّ أتيتما معي؟ العصير ينتظرنا على الشرفة.

لاحظت تس أن تصرفه لم يعجب آشلي أبداً، فقد قطبت حاجبيها وبدت

غاضبة. أما تس فتساءلت إن كانت أختها قد أخطأت بشأن افتتان ماركو بها. إلاّ إذا فتحت عطلة الرسم أو والده عينيه وجعلاه يدرك خطأه.

١٣ - واجهة وصفقة

عبروا الصالون الفخم ودخلوا إلى غرفة استقبال أخرى ذات سقف مزخرف وأرضية رخامية. بعدئذ، فتح ماركو باباً من الشباك ليسمح لهما بالمرور إلى الشرفة.

أوّل شخص رأته تس هو لوسيا دي كاستيللي التي كانت تراقبهما من مقعدها. إلا أنها لم تكن بمفردها بل برفقة رجل مسن وقف على قدميه بتهذيب ما إن رآهما.

بدت ابتسامته مرحبة بعكس لوسيا التي بقيت عابسة. وجّه الرجل كلامه إلى ماركو قائلاً: «من هما هاتان الفتاتان؟»

قام ماركو بالتعريف على الفور: «الكونت ڤيتوريو دي مارتيني، صديق قديم لجدتي».

ثم وجّه نظرة سريعة إلى تس وتابع: «عمي ڤيتوريو إنهما الآنستان دانييل اللتان أخبرناك عنهما».

انحنى الرجل العجوز ليقبّل يدها فيما قال: «تشرّفنا آنستي».

ثم أكمل بالإنكليزية بصعوبة: «أهلاً بكما في إيطاليا، هل تستمتعان بزيارة سان ميشيل؟»

وقبل أن يشرح ماركو الوضع علّقت آشلي: «تس أنت في زيارة، أما أنا فأعيش هنا».

ثم التفتت إلى السيدة الجالسة وقالت: «لا بد أنك السنيورة دي كاستيللي، جدة ماركو. أليس كذلك؟»

www.elromancia.com

أجفلت تس من الطريقة المتهورة التي استخدمتها أختها لتتكلم مع لوسيا فيما وقفت لوسيا بطريقة ملكية ثم ردّت: «نعم، أنا لوسيا دي كاستيللي. هل أنت الفتاة التي تعمل لدى أوغستين سكوتولينو؟»

بدا واضحاً تعمّدها إغفال أيّ صفة أخرى لآشلي.

ظهر التوتر على آشلي بسبب الازدراء الذي أبدته لوسيا التي وجّهت كلامها لماركو: «ألن تقدم العصير لضيوفنا ماركو؟ أتمنى ألاّ يتأخر والدك أكثر. الجو بارد قليلاً الليلة ألا تظن ذلك ڤيتوريو؟»

هزّ الكونت رأسه بينما ردّ ماركو وهو يتقدم من صينية المشروبات الموضوعة على الطاولة:

- كنت أنوي فعل ذلك على الفور جدتي.

ثم وجّه كلامه لتس: «ماذا تودين أن تشربي آنسة دانييل؟ عصير الليمون أم الكوكتيل أم تفضلين شيئاً آخر؟»

علّق صوت من خلفهم: «أعتقد أن تس تفضّل العصير ماركو».

التفتت تس لترى كاستيللي يقف في الباب فيما أضاف: «عصير الليمون، أليس كذلك؟»

كلامه جعل آشلي تنظر إليها بعينين واسعتين.

- أنا آسف، لم أكن موجوداً هنا لأرحب بكما لكن محاميّ اتصل بي في وقت غير مناسب.

لم تعرف تس إن كان ذكره للمحامي مقصوداً أم لا، كما لم تعرف بما تفكّر وهو يحدّق إليها بعينين نافذتين. وتساءلت إن كانت هذه مناورة أخرى، محاولة لوضعها هي وآشلي في موقع ضعف. بما تفكر آشلي يا ترى؟ هل هذا ما توقعته؟ شكت تس في ذلك، لكن من يدري؟

قالت أخيراً وقد بدا أن الجميع ينتظر جوابها: «لا يهم. كوب من العصير سيكون جيداً».

سكتت قليلاً ثم تابعت بشجاعة: «لكنني أفضل عصير التفاح، فأنا لا أحب عصير الليمون أبداً».

ضاقت عينا آشلي وأدركت تس أنّ ردها لم يكن ذكياً، فقد وجدت آشلي أمس إبريقاً فارغاً من عصير الليمون.

شعرت تس بالفرح لأن العتمة بدأت تنتشر، وتمنت أن يكون كل ما فعله هو تقطيب حاجبيه الساخر وهو يقول: «حقاً؟ إذاً عصير تفاح للسنيورا، وآشلي أتريدين العصير أيضاً؟»

تكلّمت آشلي بفظاظة وتساءلت تس ما الذي تسعى إلى تحقيقه بهذه الطريقة:

- لا شكراً، أفضل القهوة، تعرف كيف أحبها ماركو.

بدا التلميح صريحاً وقبلت تس الكوب من ماركو ثم استدارت تنظر بعيداً. كانت لوسيا والكونت قد عادا إلى مكانهما، لذا توجهت تس إلى حافة الشرفة متظاهرة بأنها مهتمة بالمنظر.

بدت البحيرة قبالتهم لامعة وكأنها قطعة مجوهرات وضعت بين الأشجار. تمتم كاستيللي: «هل أعجبك المنظر؟»

أدركت أنه يقف بجانبها. كان يرتدي بنطلوناً أسود وقميصاً حريرية سوداء وقد رفع كميه إلى ذراعيه.

قرّرت ألاّ تبدي دهشتها إذ أظهر اهتماماً جلياً بها، فهذه طريقة أخرى ليغضب آشلي ويدفعها لبدء المعركة بنفسها. أجابته ببرود: «إنه جميل جداً».

ماذا بإمكانها أن تقول غير هذا؟ بللت شفتيها وقررت أن لا جدوى من تجنب الموضوع فقالت: «لمَ أصرّيت على مجيئي سنيور؟ وأرجوك لا تُهِن ذكائي بالادعاء أنك أردت رؤيتي مجدداً».

- بل أردت رؤيتك فعلاً. وأنا أدعى رايف، أخبرتك ذلك عدة مرات.

تمكّنت من رؤية وجهه الآن فبدا لون عينيه داكناً مشحوناً بعاطفة لم تشأ أن تعرف نوعها. وتابع يقول: «هيا عزيزتي، قولي إنك سعيدة أيضاً برؤيتي.

أليست هذه طريقة أكثر تحضراً لقضاء الأمسية بدلاً من تبادل الشتائم؟»

هزت رأسها وقالت وهي تتمنى ألاّ ينظر إليها: «أنا لا أفهم».

لمس ذراعها بإلفة وقال: «ستفهمين مع مرور الوقت. أتشعرين بالبرد؟ هل تفضلين الدخول إلى المنزل؟»

ومن دون أن تفكر قالت بصوت منخفض: «ما أفضّله هو أن تكف عن معاملتي وكأني غبية. ليس لديك الحق في أن تلمسني وأن تهزأ مني كي تُشبع رغبتك بتحقيق النصر».

ابتلعت القليل من العصير ووضعت الكوب جانباً. وأردفت: «لمَ دعوتني وآشلي على العشاء؟ أعلم.. أنا أعلم أنك لا تريدنا في الواقع هنا».

خالفها قائلاً بصوت تلاعب بأعصابها: «أنا أريدك هنا. إن كان عليّ أن أواجه أختك كي أحقق ذلك، فليكن».

أصرّت تس على رفضها وقالت: «لا، تباً أنت لا تعرف شيئاً عني».

واجهها بلطف وكلماته ترسل في جسدها موجات من التأثر: «لكني أود أن أعرف المزيد عنك. أريد التقرّب منك عزيزتي.. ليس جسدياً فحسب بل نفسياً أيضاً».

ارتجفت تس وقد فاجأها كلامه. شعرت بانقباض في جسدها وبقطرات العرق تبلّل صدرها. أتراه يعرف حقيقة شعورها؟ لا بد أنه يعرف. لقد حاول التأثير فيها من قبل ونجح في ذلك. حمل النسيم رائحة الصنوبر كما جعلها الهواء تشعر بدفء وحرارة جسده، وتشتم رائحة عطره المميز.

عليها أن تبتعد عنه، عليها أن تفعل قبل أن تُقدم على أيّ تصرّف أحمق كاقترابها منه أو ضمه بين ذراعيها. ألن تُصدم والدته إن قامت بتصرف مماثل؟

ألحّ عليها بصوت أجش: «افعلي ذلك».

وأدركت أنها تحدق إليه منذ ما يقارب الدقيقة. آه يا إلهي! يبدو أنه قادر فعلاً على قراءة أفكارها. حملت كوبها لتتوجه مجدداً إلى حيث وقفت آشلي تتحدث إلى

ماركو وقالت: «اذهب إلى الجحيم».

حين رأت تعابير وجه أختها أدركت أنها ليست سعيدة. شعر ماركو بالفرح لرؤية تس، وسألها على الفور إن كانت تريد كوباً آخر من العصير، بينما التفتت آشلي إليها وفي عينيها نظرات اتهام. أجابته: «لا، شكراً..»

ثم أردفت: «منزلك جميل ماركو، هل استوحيت حبك للرسم من هذه المناظر الخلابة؟»

تمتم الصبي وهو يشغل نفسه بوضع الأكواب على الصينية: «لا يمكنني قول ذلك».

قالت آشلي بجفاء: «قرّر ماركو أنه لا يملك المقومات التي تجعلها رساماً، أو لعل والده هو من قرر ذلك، من يعلم».

احتج كاستيللي وهو ينضم إليهم:

- إذا أراد ماركو دروس الرسم فسأسمح له بذلك. أما الآن فأقترح أن نتناول العشاء، فأنطونيو يحاول منذ عشر دقائق أن يلفت انتباهي إلى أن العشاء أصبح جاهزاً. هل ندخل؟

شعرت تس بالارتياح لأن الدخول إلى الڤيللا لم يتم بصورة رسمية، كما شعرت بالفرح حين راح الكونت يحدثها عن إنكلترا.

غرفة الطعام التي تم استخدامها بدت أصغر حجماً مما توقعت تس.

أعدت الطاولة لستة أشخاص، وشعرت تس بالارتياح لأن ماركو جلس بجانبها. جلس كاستيلي ووالدته على رأسي الطاولة، أما آشلي والكونت ففي مواجهتها. من المفترض أن تكون هذه مناسبة فرحة ولكن تس شعرت بدوار في رأسها. بدا الكونت الشخص الوحيد الذي لم يلاحظ الأجواء المزعجة... وكذلك كاستيللي الذي كان قادراً على فصل نفسه عن ذلك الوضع المربك.

لم تأكل تس كثيراً، ولاحظت نظرات كاستيللي ووالدته التي كانت تراقبها.

أما آشلي فظهر عليها المزيد من الاستياء، وتمنت تس ألاّ تفقد أختها أعصابها وتحرجها أمام الجميع، فاعتراف كاستيللي بموافقته على السماح لابنه بتعلم الرسم زاد من غضبها.

لم يتكلم ماركو كثيراً، بل أجاب عن أسئلة جدّته. وحين تحدّثت آشلي معه بدا غير مهتم أبداً وتمكّنت تس من رؤية الاستياء الذي سببه ذلك لآشلي. وبينما راحت تس تتمنى أن ينتهي العشاء من دون حدوث أي مشكلة التفتت آشلي إلى مضيفها وقالت: «أعتقد أنك تظن نفسك ذكياً، أليس كذلك؟»

- آشلي!

شعرت تس بالخوف الشديد. من الواضح أن أختها فقدت أعصابها، وخشيت أن تتفوّه بحماقات.

ورغم أن لوسيا دي كاستيللي بدت قلقة قليلاً، بقي كاستيللي هادئاً تماماً وقال وهو يقف: «أنا لا أحاول إظهار ذكائي، لكن إن أردت التحدث إليّ فأفضّل ألا تسبيني الإحراج لضيوفي».

لم تُبدِ آشلي أي نيّة في الوقوف وقالت: «أشك في ذلك».

ألقى ماركو نظرات قلقة على والده ثم قال: «أظن أن آشلي تشعر بالتعب، هل تودين الخروج لتتنشق بعض الهواء؟»

قدّرت تس شجاعته، أما آشلي فضاقت عيناها وتشدّقت قائلة: «برفقتك أنت؟»

شعرت تس بحرج شديد في تلك اللحظة. لقد عرفت أن شيئاً مماثلاً سيحصل، لكن لم يكن بيدها وسيلة لإيقافه.

ردّ وهو يضع كرسيه إلى الخلف ليقف: «نعم برفقتي!»

رأت آشلي أن ماركو لن يساعدها على الوصول إلى هدفها فقالت:

- أفضل أن يرافقني والدك. ما رأيك سنيور دي كاستيللي؟ ألا تود أن تريني الجنائن في ضوء القمر؟

- بابا.

- آشلي.

تكلم ماركو وتس في الوقت نفسه تقريباً إلا أن كاستيللي كان قد بدأ يساعد آشلي على النهوض من كرسيها وهو يقول: «أود ذلك بالطبع، لكن إن وافقت أختك على مرافقتنا».

نظرت تس مباشرة في عينيه وقد انتفض قلبها هلعاً. يا إلهي، لما يحاول تعذيبها؟ لما لا يكتفي بإخبار آشلي أنه لم يكن يلاعبها، ويوصلها إلى المنزل. وتمسكت آشلي بذراعه قائلة:

- أنا لا أحتاج إلى مرافقة، سنيور.

تأوهت تس مجدداً بسبب إحباطها، لكن كاستيللي قال وهو ينظر مجدداً إلى تس:

- أنا أحتاج. حسناً تس... هلاّ أتيت معنا؟

زمت تس شفتيها للحظة ثم هزت رأسها ووقفت بسرعة وهي ترد: «إن كنت مصرّاً».

تجاهلت النظرات التي رمقتها بها آشلي إذ لم يكن الخيار خيارها وآشلي تعلم ذلك بالتأكيد.

- هل يمكنني المجيء أيضاً بابا؟

نظرت آشلي إليه بازدراء وقالت بسخرية: «نعم.. لما لا نجعلها حفلة عائلية؟ هل ستأتي أنت أيضاً لوسيا وأنت حضرة الكونت؟ هيا فلنخرج جميعنا لنلهو».

ثم ضحكت بشكل مزعج وتابعت: «يبدو الأمر وكأنه خطة مدروسة».

انزعجت تس بسبب قلّة احترام آشلي للمرأة المسنّة. وفكرت في أن أختها فقدت السيطرة على أعصابها.

لم يتفوّه كاستيللي بكلمة بل أمسك بذراع آشلي ليرافقها إلى الخارج فحاولت

دفعهُ جانباً. أدركت تس أن آشلي لن تهدأ، لكنها أدركت أيضاً أن كاستيللي قوي وجبار.

تكلّم ماركو مجدداً: «بابا..»

علمت تس أن الصبي لم يعرف ما يقوم به في مثل الظروف. ردّ والده بسرعة:

- أحضر فنجان قهوة. تس! هل ستأتين؟

وهل تملك خياراً آخر؟ ألقت تس نظرات اعتذار على نحو والدة كاستيللي والكونت ثم قالت: «أعذراني».

خرجوا مجدداً إلى الشرفة لكن كاستيللي أمسك بذراع آشلي وقادها إلى الحدائق التي تحيط بالمنزل. كان هواء المساء بارداً محمّلاً برائحة الليمون، وفكّرت تس في أنها ستتذكر هذه الأمسية كلما تنشقت هذه الرائحة.

يبدو أن نسيم المساء أعاد آشلي إلى رشدها. وحين ابتعدوا قليلاً عن الفيللا، تمكنت آشلي من تخليص ذراعها من قبضة كاستيللي وحدّقت إليه وإلى تس وقالت: «ما الذي يجري؟ ما الذي تعرفينه تس ولا أعرفه أنا؟ لقد أصريت على عدم المجيء إلى هنا، لئلا أكتشف مشاركتك في هذه المؤامرة، أليس كذلك؟»

أخذ كاستيللي نفساً عميقاً واستند إلى حافة بركة مياه قريبة ثم قال بعد لحظة:

- ما من مؤامرة، آنسة دانييل. ظننت فقط أنه من المهم أن تسمعي من ماركو ما لديه ليقول. أنا لم أهدده ولا أهددك الآن، وقد كنت صبوراً جداً. أختك هنا لأنني دعوتها وأردتها أن تسمع الحديث الذي يجري بيننا.

قالت آشلي بنبرة ساخرة: «حقاً؟ مما تخشى سنيور؟ ألا تعتقد أنك ناضج كفاية لتواجه امرأة نارية الطباع مثلي؟»

تشنجت تس لكن مضيفهما هزّ كتفيه بلا اهتمام وعلّق: «ليس لدي النية في مواجهتك، آنسة دانييل».

علا الاحمرار وجنتي آشلي لاستهتاره بها فيما أضاف:

- لكنني لا أثق بك، أعتقد أنك مصممة على أهدافك وتريدين الوصول

إليها.

قالت بازدراء: «يبدو وكأنني سأقاضيك بتهمة مهاجمتي. هذه ليست فكرة سيئة. اتهام رافاييل دي كاستيللي المتغطرس بالاعتداء علي».

ثم التفتت إلى تس التي بدت مصدومة وتابعت: «كيف تعلم أنها لن تساندني؟ فكّر كم سنبدو مقنعتين إذا ما قلنا القصة نفسها».

- اسكتي آشلي بحق السماء!

بدأت آشلي تحتج على ما قالته أختها إلا أن كلمات كاستيللي أوقفتها: «تس لن تفعل ذلك، وأظنك أكثر حكمة من القيام بذلك آنسة آشلي. هذه ليست لعبة، إنها حياة ابني التي تلهين بها. وأود أن أخبرك أنك هنا الآن لأنني لا أملك النية في إيذاء أختك».

ضاقت عينا آشلي: «إذاً تس فعلاً متورطة معك. كان علي أن أعلم ذلك، ماذا أخبرتك عني؟ هل قالت لك إنني لم ألمس ابنك مطلقاً؟»

احتجت تس وقد أدهشها أن تلقي آشلي اللوم عليها: «لم أخبره شيئاً آشلي. هيا فلنذهب إلى المنزل، ألا ترين أنك تضيعين وقتك هنا؟»

كان كاستيللي من أجابها والتفتت هي وآشلي إليه: «ليس بعد. أعتقد أن الوقت حان لأصرّح عن الهدف الأساسي لهذا النقاش».

تجاهلت آشلي أختها وقالت: «أتمنى أن تفعل. مسكين ماركو سيبدأ بالتساؤل عن مكاني فمجرد اكتشاف أنه لا يملك موهبة في الرسم لا يعني أننا لن نتمكن من رؤية بعضنا من جديد. بدا كئيباً الليلة وأعتقد أن الوقت حان كي نتمتع بوقتنا معاً».

زمّ كاستيللي شفتيه وقال: «أعتقد أن ماركو أدرك أنه أخطأ بذهابه معك. لقد قال لي إنك وكارلو رافيللي أصبحتما على علاقة جيدة».

حبست تس أنفاسها والتفتت إلى أختها لكن كاستيللي لم يكن قد أنهى كلامه فتابع: «ماركو ليس غبياً آنسة دانييل. ظننت أن بإمكانك خداعه لكنه ليس

صغيراً لدرجة ألاّ يلاحظ ما يحدث بينكما».

بدت آشلي قلقة وسألت: «هل تعني أن ذلك الصبي الصغير كان يتجسّس علي؟»

هزّ كاستيللي رأسه: «لم يكن يتجسّس عليك، ولكنني واثق من أنك أخبرت أختك أن ماركو مفتون بك. فهل تلومينه إن تضايق لرؤية رافيللي يتقرّب منك؟ أراد حمايتك آنسة دانييل، ظن أن الرجل يزعجك. تصوّري صدمته حين وجدك في السرير مع رافيللي».

شعرت تس بالصدمة وحتى آشلي كانت منزعجة من هذه التفاصيل وقالت بتهوّر:

- إنه مخطىء، كارلو مجرّد... كان يدّعي اهتمامه بي.

سخر كاستيللي منها: «نعم، أصدّقك! ان رجلاً كرافيللي لديه معجبات كثيرات وأنت واحدة منهن. لكنك اقترفت خطأ آخر حين قلت إن ماركو سيفتقدك وأنت تعلمين أنه لن يفعل، فشعور الشاب يُجرح بسهولة. لقد جرحت ماركو بعمق، وسخرت منه، لذا لن يسامحك أبداً».

تكلمت آشلي بغضب: «تقصد أنك لن تسمح له بذلك».

علمت تس أن خطط آشلي بدأت تفشل، أردفت: «حسناً، سنرى سنيور دي كاستيللي. لن أذهب إلى أي مكان وأنا متأكدة من أن ماركو سيغيّر رأيه حالما أشرح له الوضع».

علّق كاستيللي: «لا أعتقد أنه سيكون لديك الوقت لتشرحي له ذلك، لأنك لن تبقي في سان ميشيل آنسة دانييل، فالمعرض سيقفل غداً. لقد تحدثت إلى أوغستين سكوتولينو ووعدني بذلك».

- أنت... أنت...

- حذار سنيورينا، لم تسمعي كل ما أنوي قوله، وقد تندمين إذا ما تماديت بعصبيتك.

ثم ألقى نظرة سريعة على تس وتابع: «أنا مستعد لجعل... لجعل خسارتك لعملك أمراً محتملاً. إن وافقت على الرحيل من سان ميشيل والعودة إلى إنكلترا فسأودع أربعين ألف جنيه في حسابك المصرفي. لن أودع المبلغ كله دفعة واحدة بالطبع بل على دفعات، أي عشرة آلاف جنيه كل سنة خلال السنوات الأربع القادمة».

www.elromancia.com

١٤ - لست مخادعاً

كانت تس تدرّس تلامذتها عندما أرسلت السيدة بيكوك في طلبها. هل حصل أي مكروه لآشلي أو لزوجة أبيها وإلاّ فما هو الخطأ الذي ارتكبته؟

مع أن آل كاستيللي أرسلوها في طائرة خاصة إلى إنكلترا، فوصلت قبل بدء الفصل الدراسي، إلا أن السيدة بيكوك وتجتها لتغيّبها خلال العطلة.

على أي حال، حدث ذلك منذ ثلاثة أسابيع. ومنذ ذلك الحين بذلت تس ما في وسعها لتنهي أعمالها كلها وتبقى بعيدة عن طريق السيدة بيكوك. لكن هذا الاستدعاء أقلقها.

عضّت على شفتها وأسرعت تقطع الرواق متجهة إلى مكتب السيدة بيكوك. راحت تفكر في ما حصل معها في إيطاليا. لقد علمت منذ البداية أن من الجنون التورط مع رايف دي كاستيللي، ورغم ذلك سمحت له بالتقرب منها وشجعته ثم سمحت لنفسها بالوقوع في غرامه.

شعرت ببعض الارتياح لأن آشلي لم تكتشف مدى غباء تصرفاتها. ربما كان لديها أمور أكثر أهمية تفكر فيها حين عادتا من الڤيللا: كيف ستنفق المال الذي حصلت عليه من كاستيللي.. وكيف أصبح بإمكانها استئجار شقة صغيرة في لندن بدلاً من العيش مع والدتها..

أما تس فقد شعرت بالاشمئزاز منها ولم تستطع أن تتحدث إليها.

لا عجب أن يتمكن هذا الرجل من شراء أي شيء بماله. وجدت تس صعوبة في مسامحته لأنه جعلها شاهدة على طمع أختها.

حاول التحدث إليها حين عادت آشلي إلى الڤيللا لإحضار حقيبتها. وحين

رفضت التحدث إليه أو حتى النظر إليه، قال غاضباً: «بحق السماء تس، ماذا توقعت مني أن أفعل؟».

قالت بصلابة: «لا أريد التحدث في الموضوع، لا أرى سبباً يجعلك تورطني في علاقات قذرة».

ألقت نظرة سريعة عليه، وحين رأت نظرات التردد في عينيه تمنت لو لم تفعل، وتابعت: «هل خفت أن تتهمك آشلي بالاعتداء عليها إذا تكلمتما على انفراد؟ أردت فقط أن تريني كم يمكنك أن تكون قاسياً؟»

- قاسياً؟ كلا!

بدا مصدوماً بسبب اتهاماتها هذه، ما جعلها تفكر في أن ما فعله لم يكن هاماً بالنسبة إليه. فهو يدفع المال لآشلي لأنها علّمت ابنه درساً لن ينساه. وهذه النقود ترضية لها لتبتعد عنهم.

رفضت تس أن تشعر بالتعاطف معه، فقالت: «تصرّفت بمكر حين أعطيتها المال على أربع دفعات. أنت تأمل أن يصبح أكثر وعياً عند بلوغه الحادية والعشرين من عمره، فلا يتورط معها مجدداً».

تنهد كاستيللي وقال: «لا أظن أن ماركو من الغباء بحيث يكترث لما ستفعله أختك إن أعطيتها المال. أنا أشتري حرية ماركو تس، كما فكرت في أن أخلص آشلي من مشكلتها من أجلنا، أنا وأنت، فمن السهل أن تظن أنها انتصرت في النهاية».

لم تعد تس تعلم بما تفكر، لكن من المؤكد أنه أذكى مما تصورت. كيف يمكنه أن يتخيل أنها ستغفر له ما فعله.

دفعته جانباً، وسلكت الطريق المؤدية إلى الڤيللا بسرعة. كانت آشلي تنتظرها، فقد بدت السيدة لوسيا دي كاستيللي سعيدة باستدعاء السائق ليوصلهما إلى بوتو سان ميشيل.

أمضت تس ليالٍ عدة من دون أن يغمض لها جفن، وهي تتساءل لما حكمت

بقسوة على كاستيللي. لعلها الطريقة الوحيدة لتقطع علاقتها به من دون أن تتحطم كلياً. مهما قال لها كاستيللي ومهما فعل، فهي تعلم أن لا مستقبل لعلاقتهما معاً.

بدا باب مكتب السيدة بيكوك مفتوحاً جزئياً، وقالت: «سيدة بيكوك؟»

زاد قلق تس حين رأت رجلاً يقف عند النافذة. كان يدير ظهره إليها، وللحظة، تساءلت إن كان هذا الرجل قد اقتحم المكتب قبل وصولها. لكنها شعرت أنها تعرفه، فشعره الذي يلامس قبة سترته ليس غريباً عنها... وأدركت أنها تعرفه...

قال من دون أن يلتفت: «ادخلي تس».

جف حلقها ما إن أدركت أنه كاستيللي. إنه هو بالتأكيد!

لكن ما لم تفهمه هو سبب وجوده هنا، وسألته: «أين السيدة بيكوك؟»

يا له من سؤال سخيف! لكنه السؤال الوحيد الذي خطر ببالها. كان بإمكانها أن تسأله: لما أنت هنا؟ وماذا تفعل؟ إلا أنها لا تملك الجرأة ولا الحق في طرح هذه الأسئلة.

قال وهو يستدير نحوها: «ذهبت لتعد القهوة».

وقفت تس تحدق إليه، فلاحظت أنه يبدو نحيلاً كما ظهرت بضعة خطوط حول فمه، خطوط لم ترها من قبل.

- كيف حالك تس؟ تبدين في حالة جيدة!

وضع يديه في جيبيه والتوت شفتاه وهو ينظر إليها فيما أضاف: «غدا شعرك أطول».

مرّرت تس يداً مترددة في شعرها، ثم بللت شفتيها وقالت: «أنا... نعم... اعتدت على ترك شعري طويلاً، إلا أنني قصصته قبل عطلة الفصح. كيف حالك أنت؟ كيف حال ماركو ووالدتك؟»

- ماركو يدرس بجد على ما أعتقد. وأمي ذهبت مع ڤيتوريو في رحلة بحرية.

صمت قليلاً ثم تابع يقول: «أما أنا فلا أزال حياً. أعتقد أن هذا هو التعبير المناسب».

زفرت تس بقوة بعد أن أدركت أنها تحبس أنفاسها. وحين لاحظت أنها لا تزال تقف في المدخل، دخلت الغرفة بتردّد. لم تكن واثقة كيف تفسّر كلامه، وظنت أنه يسخر منها، فقالت: «ماذا تقصد؟ لا أظن أن حياتك كانت مهددة».

- ألا تعتقدين ذلك؟

أربكها كلامه، وللحظة شعرت بالخوف فحدّقت إلى وجهه، وسألته: «أنت.. أنت لست مريضاً، أليس كذلك؟»

بدا أنه لا ينوي تغيير مكانه بجانب النافذة وسألها: «هل يشكل ذلك أيّ فرق لديك؟»

حاولت أن تتبيّن إن كان جاداً أم لا، فقالت: «بالطبع. لكنك لست مريضاً، أليس كذلك؟»

وشعرت بأظافرها تتغرز في كفيها وابتلعت بريقها فيما أردفت: «كاستيللي، ما الذي تفعله هنا؟ إن كنت تبحث عن آشلي، أخبرتك أنها لا تعيش في مكان قريب مني».

بدا وجهه الداكن أكثر قساوة وقال بخشونة: «لم آتِ للبحث عن أختك. بالله عليك تس، هل من الضروري أن تذكري تلك المرأة في أحاديثنا كلها؟ خاطرت بأن أكون هدفاً لسخريتك مرة أخرى، فأتيت لأراكِ. لم يكن إيجادك مهمة سهلة عليّ وعلى مساعدي. هل تعلمين كم من مدرسة في منطقة باكستون؟ أؤكد لك أنها عديدة».

ألقت تس نظرة سريعة على الرواق، وتخيّلت السيدة بيكوك تستمع إلى هذه المحادثة. قال كاستيللي وكأنه قرأ أفكارها: «لن تعود الآن. نحن بمفردنا تس... ربما بإمكانك أن تخبريني كيف شعرت حين اكتشفت أنني هنا؟»

www.elromancia.com

أخذت تس نفساً عميقاً وتمتمت بتردد: «لقد... فوجئت».

قطّب وسأل متحققاً مما سمعه: «فوجئت؟ إذن، أنت ما عدتِ تكرهينني!»

فاندفعت الكلمات من فمها: «أنا لم أكرهك يوماً، ولم أقل يوماً إني أكرهك».

ذكّرها بهدوء: «لكن شعورك نحوي لم يكن إيجابياً حين غادرت الڤيللا وقد وجدت صعوبة في التعايش مع الأمر».

شعرت تس بقشعريرة في جسدها، ولم تدر بما تجيب، فقالت: «آسفة».

هل قطع كل هذه المسافة ليطلب منها السماح؟ ولما تستغرب هذا.. إنها إحدى التصرفات الغريبة التي قد يُقدم عليها. وتابعت تقول: «أعتقد أنني شعرت.. بالذل بعد كل ما حدث. لكن، بعد التفكير في الموضوع فهمت أنك كنت تحاول حماية ابنك».

أطلق كاستيللي شتيمة وهو يمرّر يده في شعره ثم قال بألم: «يمكن لابني أن يهتم بنفسه، لكنني كنت أحاول حمايتك أنت. لهذا أردت التأكد من أنك لن تغادري إيطاليا قبل أن تسنح لنا الفرصة لنتكلم. بدوت مخلصة وحساسة، وأردتك أن تكتشفي أن أختك عديمة الضمير حتى تجاهك أنتِ. ولكنني أفسدت الأمر».

لم تعلم تس ما عليها أن تقوله، وكل ما تمكنت من القيام به هو هزّ رأسها بضعف. بدا واضحاً أنه يلوم نفسه على ما حدث، وتمنت لو تستطيع أن تؤكد له العكس. وأخيراً قالت:

- لا يهم، لقد تخطيت الأمر.

ضغطت يديها على المكتب وحاولت ألا تدع صوتها يفضح مشاعرها حين أردفت: «هل ستبقى طويلاً في إنكلترا؟»

أطلق كاستيللي زفرة ثم لوى شفتيه قائلاً: «إنه سؤال وجيه. كم سأبقى هنا؟ ماذا أجيب؟ سأبقى مدة كافية لإقناعك بالعودة إلى إيطاليا هذا الصيف».

رمشت تس بعينيها وقالت: «حسناً، أود زيارة إيطاليا مجدداً».

وقبل أن تكمل كلامها قاطعها: «ربما لم أوضح كلامي. أريد منك العودة لتبقي معي في الڤيللا».

وصمت قليلاً حين رأى عينيها تتسعان وشفتيها تتحركان بارتباك، ثم تابع قائلاً: «سيمضي ماركو الصيف في فرنسا. لذا، سنكون بمفردنا، وإن كان ذلك يخيفك فسأطلب من أمي أن تلعب دور الحارس لك».

لم تستطع تس منع نفسها من التحديق إليه وسألت: «كم من الوقت تريدني أن أبقى في الڤيللا؟»

لم يجبها كاستيللي عن سؤالها بل قال: «لوسيا تعتبرني مجنوناً إن اعتقدت أنك ستوافقين، فهي تقول إنك لا ترين فيّ سوى والد ماركو وإنني أكبر من القيام بهذه التصرفات. إنها محقة. ورغم ذلك كان علي المجيء إلى هنا».

أخذت تس نفساً مرتجفاً وسألته مجدداً:

- لمَ تريدني أن أبقى معك في الڤيللا؟ كاستيللي... رايف... ما الذي تعرضَ عليّ بالضبط؟ عطلة في الصيف، أم تعويض عما شعرت به بعد تصرفك الأخير مع آشلي؟

أحنى رأسه وهو يحاول التفكير في جوابه، ثم قال بصوت مثقل بالعاطفة:

- أنا لا أقدم لك أياً من هذين العرضين. إنها طريقتي في سؤالك أن تمنحيني فرصة ثانية.

بدأت تس بالارتجاف وسألته بتردد: «فرصة أخرى... من أجل ماذا؟»

كانت تحتاج لسماع السبب منه. رفع رأسه فبدا وجهه منهكاً في ضوء الصباح الرمادي، ثم قال ببساطة: «لأريك كم أهتم لأمرك... أبرهن لك أنني لست متعجرفاً أو مخادعاً كما تظنين».

لم تستطع تس أن تصدق ما تسمعه، وظهرت الحيرة على وجهها، لكن كاستيللي لم ينجح هذه المرة في فهم تعابيرها. فبدلاً من أن يفهم مشاعرها تابع: «إن... إن كنت تظنين أنني عجوز بالنسبة إليك كما تقول أمي فسأوافقك

الرأي. وإن كان لرجل آخر في إنكلترا تأثير أكبر في عواطفك فسأتفهم ذلك. لكن، كان علي المجيء إلى هنا، هل تفهمينني؟ كان علي أن أعلم...»

لم تسمح له بمتابعة كلامه فقالت: «لا تفعل. أرجوك لا تكمل».

التمعت عينا رايف باضطراب وغدا لونهما داكناً. وبذل جهداً واضحاً ليتمالك نفسه ثم قال: «أنت صادقة. ربما يمكنك أن تبلغي شكري للسيدة بيكوك التي سمحت لي باستخدام مكتبها».

وقبل أن يتمكن من الحراك والخروج من الغرفة ومن حياتها، صرخت: «لا، أنت لا تفهم!»

وتحركت نحوه مضيفة: «يا إلهي! رايف، ظننت أنني لن أراك مجدداً».

بدا رايف مصدوماً، فحدّق إليها كأنه لا يصدق ما يسمعه، ثم أمسك ذراعيها ليعود فيتركهما.

- أتقصدين أنك توافقين على المجيء إلى الڤيللا؟

وحين هزّت رأسها إيجاباً رأت يديه ترتجفان ما جعلها ترغب في لمسه، بل بضمه إلى صدرها لتزيل أي شك يساوره. ولكن هل عليها أن تصدّق أنه هو أيضاً يريدها معه؟

- كم... كم من الوقت ستبقين برفقتي؟

سألته برقة: «كم من الوقت تريدني أن أبقى؟»

اقترح بصوت أجش: «إلى الأبد».

ثم هزّ رأسه بنفاد صبر، وسألها: «لديك ستة أسابيع عطلة، أليس كذلك؟ فما رأيك بقضاء أربعة منها هناك؟»

وجدت تس صعوبة في التكلّم. إنه يريدها أن تعيش في الڤيللا! أخذت نفساً عميقاً وعلمت أن الدقائق التالية ستكون أهم الدقائق في حياتها. وقالت بجرأة: «إلى الأبد يبدو اقتراحاً جيداً».

- تعنين أنك ستبقين معي؟

همست وهي ترفع يديها لتلامس وجنتيه: «سأبقى ما دمت تريد ذلك، أليس هذا ما تريد سماعه؟»

قال بصوت ملؤه العاطفة: «يا إلهي! حبيبتي، هذا بالضبط ما أردت سماعه».

ومد يديه ليطوقها بذراعيه. تمكنت تس من سماع دقات قلبه وهي تضرب بقوة، كما شعرت بلهفته التي حاول إخفاءها بصعوبة. إنه يريدها بقوة وبدا متشوقاً لرؤيتها. وما بدأ كعناق لطيف سرعان ما تحول إلى عاطفة جارفة أغرقتها في دوّامة من المشاعر العنيفة.

- رايف!

تراجع قليلاً وقال: «عزيزتي، أنا أريدك. كيف تشكين في هذا؟ هيا، أريني أين تعيشين، قلت إنك تملكين شقة أليس كذلك؟»

ولدهشتها، كان كاستيللي قد استأجر سيارة صغيرة عملية لا تشبه السيارات التي يملكها في بلاده مطلقاً.

- أكاد لا أصدق أن ما حصل حقيقي وأنك قطعت هذه المسافة كلها لرؤيتي.

صحح لها كاستيللي بنعومة: «ليس لأراك فقط، بل لأقول لك إنني أريدك في حياتي».

حملت تس مفتاح الشقة في يدها وهما يسيران في الممر الصغير المؤدي إليها، لكن يديها أخذتا ترتجفان ولم تستطع فتح الباب. أخذ رايف المفتاح منها، ونجح في فتح الباب، ثم توجّها معاً عبر رواق قصير، فقال لها رايف: «هيا أريني شقتك».

فتحت باب غرفة النوم وغرفة الجلوس ليصلا إلى غرفة الطعام وهما لا يكفان عن الكلام. توقفت تس أمام باب المطبخ وقالت له: «أسكن هنا منذ تسع سنوات، وقد اخترت الديكور وقمت بطلاء المنزل بنفسي».

www.elromancia.com

قال رايف وهو يبتسم بلطف: «لطالما حاولت تخيّل منزلك فرسمته في خيالي مرات عديدة. علمت أنه سيكون مرتباً ومنسّقاً مثلك تماماً».

- تجعلني أبدو سخيفة.

واستدارت لتضيء الأنوار التي التمعت في الشقة. شعرت تس أنها لم تعد واثقة تماماً، فربما كان إحضاره إلى هنا غلطة منها. كانت تحضّر فنجانيّ قهوة حين أتى رايف من خلفها وطوقها بذراعيه. وقال بسرعة: «عزيزتي، ما من شيء سخيف، فأنت تتمتعين بكل ما أريده في المرأة. لكن هل أنت مستعدة لترك حياتك في إنكلترا للعيش معي؟»

حبست تس أنفاسها ثم استدارت لتنظر إليه وطوقت وجهه بيديها قائلة:

- كنت أظن أنني أثبت لك ذلك. أنت تعلم أنني أفعل أي شيء من أجلك.

- لكنها خطوة كبيرة.

أدركت أنها خطوة كبيرة فعلاً. ألقت جانباً بجميع شكوكها ونظرت إليه قائلة ببساطة: «إن أردتني فأنا لك».

يكفيها أن تعيش مع هذا الرجل سنوات أو أشهر أو حتى أسابيع... سوف تأخذ ما يعطيها إياه وتكون ممتنة لذلك.

- حبيبتي!

قال ذلك وضمها إلى صدره في عناق طويل يعبق بالشوق الذي يحمله إليها. ثم تمتم بصوت أجش: «يا إلهي! تس، الأسابيع الثلاثة المنصرمة كانت أطول أسابيع في حياتي».

ثم تابع دون أن يبعدها عنه: «أحبك تس، وأريدك أن تعودي معي إلى إيطاليا، لن أستطيع الانتظار حتى تنتهي السنة الدراسية».

النهاية

مرت ثلاثة أشهر على وجود تس في ڤيللا كاستيللي. بدا ماركو سعيداً بوجودها كما تقبلت ماريا وجودها لأنها جعلت والدها سعيداً.

أما والدة كاستيللي فقبلت بالأمر الواقع حين أدركت أن رايف وقع في حب المعلمة الإنكليزية. ظنت تس أن رايف سيسأم منها مع مرور الوقت، لذا لم تكن تنظر إلى المستقبل البعيد، واكتفت بوجودها هناك وبشغف كاستيللي بها، هذا الشغف الذي تبادله إياه.

كانت الرحلة برفقته إلى إيطاليا مليئة بالحماس. ولم تعرف تس كيف تمكّن رايف من إقناع السيدة بيكوك بالسماح لها بالمغادرة قبل نهاية الفصل الدراسي. إلا أنه اعترف لها لاحقاً بأنه قدم المساعدات للمدرسة. كان التخلي عن شقتها مهمة أصعب، لكن كاستيللي قال لها إن لا داعي لمتابعة دفع الإيجار لأنها لن تعود إلى انكلترا.

حسناً! على الأقل، ليس في وقت قريب.

استيقظت تس من النوم وتوجهت إلى الحمام. كانت هي وكاستيللي يعيشان في جناحين منفصلين في الڤيللا. لكن، من يعلم ما الذي سيحدث في المستقبل؟

كانت تس قد أنهت حمامها وارتدت ملابسها حين سمعت قرعاً على بابها ولم تفاجأ حين رأت كاستيللي.

- لقد أحضرت غرضاً من الخزنة.

- ظننت أنك ذهبت إلى العمل.

عادة، يمضي كاستيللي الصباح في مكتبه في المعصرة، وقد اعتادت تس أن

www.elromancia.com

تعطي دروساً باللغة الإنكليزية لأولاد العمال في غيابه. قال لها: «اليوم هو السبت».

تغيّرت تعابير وجهها حين أدركت ذلك واعترفت بجفاء: «لا أزال نصف نائمة».

قال كاستيللي وهو يسير في غرفة النوم: «ثمة ما أريد أن أقوله لك».

نظرت إليه تس وهي تشعر بالحشرية، فهو لم يعانقها بعد، ما المشكلة؟

تذكّرت الكلمات التي قالها للتو، لقد كان في الأسفل يحضر غرضاً من الخزنة. يا إلهي! هل سيعطيها بعض المال ويتخلى عنها الآن؟

بقيت حتى الآن تشعر بالتفاؤل وهي تتخيل أن علاقتهما ستستمر لأنه قال إنه يحبها. بالكاد لاحظت غرفة النوم التي لطالما أشعرتها بالفرح، والفطور الموضوع على الشرفة، مع سلة من الخبز الساخن.

لم يخرج كاستيللي إلى الشرفة، بل جلس على حافة السرير وأومأ لها لتجلس إلى جانبه. شعرت تس بالخجل فجأة، فإذا أرادها أن تعود إلى إنكلترا لن تأخذ منه المال. وأخيراً قال وهو ينظر إليها: «إذن!»

بدت نظرات عينيه جدية وظهر على وجه عبوس حذر ما أكد لها شكوكها. وتابع رايف يقول: «لدي ما أخبرك به. أردت أن أخبرك به الليلة الماضية ولكن.. لم أتمكن من ذلك».

أصبحت تس واثقة الآن مما سيقوله. فقد أمضيا الليلة الماضية أمسية رومنسية ورقصا على أنغام الموسيقى. أكانت ليلة الوداع الأخير؟ هذا ما خطر لتس بألم..

هل سيكون من الأسهل عليه أن تخبره بنفسها أنها تريد العودة إلى إنكلترا؟ لكن لا، عليها أن تسمع ذلك منه، حتى لو كان ذلك آخر ما سيقوله لها.

نظرت إليه وهي تبذل جهداً لكبح دموعها ثم قالت بصوت أجش: «ما الذي تريد قوله؟»

أحنى رأسه وردّ: «تس، الأمر ليس سهلاً علي. تعلمين أنني أحبك، أليس كذلك؟ حسناً، لم يعد هذا كافياً الآن».

- لا؟

بالكاد سُمعت الكلمة التي تلفظت بها. فقال بهدوء: «لا. الأسابيع أو الأشهر التي أمضيناها معاً كانت سحرية. لكنني أحتاج إلى المزيد، أحتاج لأن أعرف أنك ملكي، جسداً وروحاً».

حدّقت تس إلى وجهه: «لا أعلم ماذا تقصد».

- لهذا نزلت إلى الخزنة.

وأخرج علبة صغيرة من جيبه وتابع: «عزيزتي، هذا الخاتم كان لجدتي، وأريدك أن تلبسيه الآن. إنه خاتم خطوبة، وأعلم ما يعني ذلك».

ابتلعت تس ريقها وسألته غير مصدقة: «هل تعني أنك تريد الزواج بي؟»

هز كاستيللي رأسه موافقاً، وأمسك بيدها وقبلها وهو يقول: «لكنني سوف أتفهم إن رفضت طلبي هذا، عزيزتي. أعلم أننا لم نتكلم عن الزواج يوماً، وأنها خطوة كبيرة، لكنني أريد منك أن تفكري في الموضوع. ليس عليك أن تقرري الآن في كل الأحوال».

ثم أضاف وقد رأى الصدمة مرتسمة على وجهها فأساء فهمها: «يمكنك أن تأخذي وقتك لتفكري».

وزمّ شفتيه ليقول من جديد: «حسناً، ربما... حتى آخر النهار».

- آه رايف!

خنقت تس صرخة في داخلها واندفعت نحو ذراعيه، ثم راحت تبكي وتضحك معاً وتابعت:

- ظننت أنك ستطلب مني الرحيل.

ابتعد عنها لينظر إلى وجهها: «أطلب منك الرحيل!»

رأت تس عينيه الممتلئتين بالحب والحنان، فيما أضاف: «وددت أن أطلب

منك الزواج منذ أسابيع. . . لا بل منذ أشهر، لكنني أردت إعطاءك بعض الوقت لتتأكدي من أن هذا ما تريدينه أنت أيضاً».

عانقته من جديد وهي تقول: «رايف».

ثم ابتعدت عنه قليلاً لتسمح له بوضع الخاتم في إصبعها. بدا ملائماً تماماً، فابتسم رايف وقد شعر بالاعتداد بنفسه، واعترف قائلاً:

- قمت بتعديل قياسه.

وتذكرت تس أنه تظاهر مرة بالإعجاب بخاتمها الصغير.

- إذن، هل ستتزوجيني حبيبتي؟ هل تعيشين معي وتكونين حب حياتي؟

وبالتأكيد قالت: «نعم».

www.elromancia.com
مـــرمـــوريـــة